الفصل السادس

ساخر متصوف

الدوس ليونارد هكسلى

١٨٩٤ - ١٩٦٣

الدوس هكسلى . .
ساخر تصوف

حياته :

يعتبر الدوس ليونارد هكسلى من الكتاب الصامتين الذين قلما يتحدثون عن أنفسهم ولهذا يجد الباحث صعوبة فى الحصول على مادة تعينه على التعرف على الجوانب العديدة لحياته الشخصية. ولهكسلى من سعة الاطلاع والقدرة على تشكيل أفكاره والحركة المستمرة مايجعل الباحث يجد فى كتبه كل مايبحث عنه وقد تعرض لإنتاجه الأدبى كثير من النقـــاد وكتبت عنه الصحف والمجلات لاسيما بعد نشره لقصته « عالم جديد شجاع » عام ١٩٣٢ وتنبأ فيها بما سيحدث فى المستقبل عندما ينجح العلم الحديث فى « تفريخ » الجنس البشرى. ولكنه نشر فى عام ١٩٥٦ كتابه « زيارة ثانية للعالم الجديد الشجاع » وفيه استعرض ماقد تم فعلا من تنبؤاته السابقة وقارن بين كتابه وكتاب جورج أورويل « ١٩٨٤ » . وفى معظم الدراسات التى ظهرت حتى الآن لحياته ومؤلفـــاته . لازالت صورة الدوس هكسلى كساخر تطغى على صورته كمتصوف ولم تظهر دراسة وافيه شاملة تتبع تطوره الفكرى وتشرح أسباب اهتمامه بمستقبل البشرية وتحوله إلى التصوف . وفى هذا البحث سنحاول أن نثبت وجه الشبه الكبير بين هكسلى وأبطال قصصه كلها ، وستكون مفكرات أبطاله ويومياتهم فى قصصه بالإضافة إلى مقتطفات من كتب رحلاته مصدر المادة التى ستعيننا على تفهم سيرته . ونأمل أن نعطى لشخصيته صوراً متتابعة ومن زوايا مختلفة ثم ندعها تتكلم بلسانها وتعبر عن كل جانب من جوانبها .

وفى هذه الدراسة لابد من أن نوفق بين البواعث والدوافع النفسية والتكوين الجسدى والمزاج الشخصى من جهة والإنتاج الأدبى من جهة

أخرى . فلن يفوتنا أن نرسم له صورة جسمانية من واقع قصصه ومقالاته ورسائله وكتب رحلاته ، وكان هكسلى دائماً يشعر بالهزال والتوعك وفقدان الشهية وكثيراً ماقاسى من ضعف بصره ومن الإمساك المزمن واضطرابات المعدة وأمراض الكبد والصفراء وتوفى على أثر إصابته بسرطان المعدة . وللمزاج الشخصى والتكوين الجسدى أثرهما فى الدوافع النفسية وبالتالى فى العمل الأدبى ويقول هكسلى : « كل فلسفة فى الحياة تبدأ بإحساس أو شعور عميق أو مزاج شخصى وتنتهى برأى » .

ولابد للأديب من تغيير وجهة نظره على مر السنين وفى هذا يقول : « لقد حاولت أن أجبر نفسى على أن أكون تجسيداً لمبدأ أو أن أصبح « نظاماً » يسير على قدمين ... ولكن الإنسان لا يصبح ثابتاً إلا إذا تحجر . . ولهذا أوثر أن أظل حراً وحياً وفى خطر على أن أصبح كالمومياء وفى أمان » .

ولا يستطيع الأديب أن يتخلص من مزاجه الشخصى أو تكوينه الجسدى إلا بشق الأنفس ، وهناك صراع دائم بين شخصية هكسلى الأديب وهكسلى كما هو . ويقول « يونج » « كل إنسان خلاق يعد إنسانا لهشخصيتان أو خليطاً من المواهب المتناقضة . فهو إنسان له حياته الخاصة وفى الوقت نفسه « عملية » خلق غير ذاتية » ويقول هكسلى «إن كل فنان يسرد قصته إنما يسردها علينا بطريقته الخاصة وهذه الطريقة تحوى قصة أخرى متداخلة مع القصة الأولى ، قصة عن الفنان نفسه ، قصة إنسان موهوب وكيف يقتنص تجاربه من العالم حوله . والقصة الأولى تسرد نفسها عن عمد والقصة الثانية تسرد نفسها دون وعى من الفنان ، فهو لايستطيع أن يتجنبها لأنها تعبر عن ذاته الخاصة ، تعبر عن مزاجه وتكوينه العاطفى الذى ولد به وعن شخصيته التى صقلها هو وكذلك الدوافع الكامنة التى تكونت من تفاعل مزاجه الشخصي وشخصيته التي صقلها والظروف المحيطة به » .

وإذا ضعف الجسد واشتد الطموح والذكاء فالطريق هو طريق الإنطواء والعزلة لا طريق المغامرات والعنف ، أو طريق التأمل والتعايش السلمى والتصوف لا طريق التهكم والسخرية أو الشهوات والغرائز . فالمفكر أو أو الأديب أولا وآخرا كائن حى. وصفة الإزدواج فى التفكير ظاهرة كل الظهور فى أعمال هكسلى فى الفترة الأولى فمنذ البدء شعر بقوة الشهوة إلى حد كبير واستمر لفترة طويلة أسيراً لشيطانه يحاول ما استطاع أن يظفر به وينتصر عليه .

ومايهمنا فى هذا البحث هو التحول العظيم فى حياته من السخرية والإحباط إلى التكامل فى الشخصية والجدية فى الكتابة والنقد والبناء والشعور بالمسئولية عن طريق الفلسفة الهندية السلمية والتصوف. فى الفترة الأولى (١٩١٦ — ١٩٢٧) من حياته الأدبية الطويلة لم ينج من قلمه اللاذع أى شىء ولكنه سرعان ماوجد أن هذا الطريق طريق مسدود لايقود إلى الخير أو الخلاص أو اكتمال الشخصية .

وبدأت فترة الصراع النفسى العصيب تميز كتبه فى الفترة الثانية (١٩٢٨ — ١٩٣٤) حتى نصل إلى الفترة الثالثة والأخيرة (١٩٣٥ — ١٩٦٣) ونرى فيها التكامل والتصوف واضحين .

وولد هكسلى فى عائلة تبرز فيها أسماء لامعة فى الأدب والعلوم ونرى أثر ثقافته المتنوعة فى كتبه بشكل واضح ، فهو شقيق سير جوليان هكسلى العالم البيولوجى المعروف وكان والده الكاتب والمحرر ليونارد هكسلى أكبر أبناء توماس هنرى هكسلى ، ووالدته جوليا آرنولد ابنة توماس آرنولد أعظم ناظر مدرسة ومعلم فى القرن الماضى وهو شقيق الشاعر والناقد الفكتورى ماثيو آرنولد . وكانت عمته ، التى تولت تربيته بعد وفاة والدته ، هى مسز همفرى وارد القصصية الفكتورية. ومنذ نعومة أظفاره نشأ هكسلى فى جو علمى أدبى وكان مقدراً له أن يصبح إما أديباً أو عالماً .

ولقد كان هكسلى كاتباً مخصبا دائماً ونشر أكثر من خمسين كتابا فى الشعر والقصص والرحلات والنقد والتصوف وكان له شهرة دولية ولم يبلغ الثلاثين من عمره وترجمت معظم كتبه إلى كثير من اللغات . وقام برحلات عديدة فى أوروبا وأمريكا والهند وزار مصر مرتين . وفى هذه الرحلات احتك بثقافات وعادات وحضارات مختلفة وأصبح له سيطرة على مادته المتشعبة الغزيرة . وقد زج بنفسه فى كل عمل ذهنى على أدبى فلسفى دينى . وحين قدم على شاشة التليفزيون فى محطة الإذاعة البريطانية وصفه مقدم البرنامج بأنه الكاتب الذى له عقل كدائرة المعارف البريطانية . ويقول هكسلى ان هوايته فى السفر قراءة دائرة المعارف على ظهر الباخرة ، ويقول لنا أخوة سير جوليان إنه دائماً يطلب وضع أجزاء دائرة المعارف فى صندوقين ويحملهما معه أينما ذهب .

وولد هكسلى فى ٢٦ يوليو عام ١٨٩٤ وتلقى تعليمه الأولى فى مدرسة إبتدائية وبعدها فى « ايتون » الذى ذهب إليها أثر حصوله على منحة فى عام ١٩٠٨ . وكان أمله أن يصبح طبيباً ، ولما كان على وشك التخصص فى علم الأحياء أصيب بمرض فى عينيه وبعد بضعة شهور فقد بصره تماماً . وبدأ فى تعلم قراءة الكتب والنوتة الموسيقية بطريقة « بريل » وبدأ فى استعمال الآلة الكاتبة . ولما كان عمره ثمانية عشر عاما انتهى من كتابة قصة على الآلة الكاتبة ولما استرد بصره قليلا كان مخطوطها قد ضاع .

وبعد عامين شفيت إحدى عينيه قليلا وعندما استطاع القراءة بمساعدة عدسة مكبرة ذهب إلى جامعة أكسفورد حيث درس الأدب واللغة عندما أصبحت دراسة العلوم أمراً مستحيلا نظراً لضعف بصره . وتخرج فى عام ١٩١٥ وقضى فترة الحرب العالمية الأولى فى أعمال متعددة كقطع الأشجار والعمل فى مكتب حكومى والتدريس . وفى عام ١٩١٩ تزوج ماريانيز وكانت بلجيكية الأصل حضرت لإنجلترا أثناء الحرب كلاجئة . ثم عمل عضواً فى هيئة

تحرير مجلة « اثينا يوم » تحت رئاسة جون ميلدتون موري . وفي هذه الفترة كتب جزءاً كبيرا من الأدب الصحفي لكثير من المجلات .

وعندما تمكن من اقتصاد بعض المال نزح إلى إيطاليا مع زوجته وابنه حيث قضى معظم وقته فيما بين عام ١٩٢٣ وعام ١٩٣٠ . وفي إيطاليا كرس وقته للكتابة . وفيما بين عام ١٩٢٥ وعام ١٩٢٦ قضى وزوجته وقتاً طويلا في الهند وعند عودتهما اتصلا بفريدا ود . ه . لورنس . ومنذ ذلك الوقت وحتى وفاة د . ه . لورنس عام ١٩٣٠ كان هكسلي وزوجته مع لورنس في إيطاليا وفرنسا .

وفي عام ١٩٣٠ اشترى منزلا صغيراً في جنوب فرنسا وأصبح ملاذاً لهم طالما كانوا خارج إنجلترا . وفي عام ١٩٣٤ ذهب إلى أمريكا الوسطى والولايات المتحدة وبعد ثلاث سنوات عاد إلى أمريكا . وهناك علم بطريقة تعيد الإبصار للعين ابتكرها الدكتور « بيتس » ، وبعد فترة تدريب على يدى خبراء في هذه الطريقه بدأ التحسن الواضح في قوة الأبصـــار وبدأ الأمل يحيا في نفسه (أنظر كتابه « فن الإبصار ») وفي كاليفورنيا ساعد في التحضير لكتاب عن مدام كورى ولفيلم سينمائى عن قصة لجين أوستن .

ولنقرأ ما كتبه هكسلي في عام ١٩٥٠ في معرض حديثه عن أهم تجربة مر بها في حياته : « إن أهم حدث في حياتى هو ، بدون نزاع ، بداية ضعف بصرى . وكان لهذه التجربة أثرها في عزلى أيام شبابى واضطرنى ضعف بصرى أن أعيش معتمداً إلى حد كبير على أفكارى الذاتية محصوراً في نطاق تجاربى الشخصية . وفي الشهور الماضية وعن طريق توجيه القوى الواعية في الإنسان تمكن الخبراء من علاج هذه العاهة . وقد أثبتت لى هذه الطريقة أنه يمكن للانسان من أن يسيطر على ظروفه بدلا من أن يصبح عبداً لهـا . »

« ومشكلة الحرية بالمعني السيكولوجي ، لا بالمعني السياسي ، هي مشكلة

فنيـة . فلا يكفى أن يرغب الإنسان فى أن يكون سيداً . فالالمام الصحيح بالوسائل التى تمكنه من السيطرة على ما يريد لها ضرورتها القصوى .

ومن مجال إنسانى واحد محدد يوحى بالعجز زودنا الدكتور « بيتس » بهذه المعلومات . وقد تطورت طرق وأساليب عديدة فى مجالات أخرى للسيطرة على ظروف قاسية ، ويمكن لأى شخص أن يستفيد منها إذا أراد. وكل الأساليب ثانوية على كل حال وتدور حول فن واحد رئيسى . وهـذا الفن الرئيسى الذى يعلمنا الحصول على الخلاص من العجز الإنسانى الذى يدفعنا إلى الإثرة وحب النفس كثيراً ما كتب عنه ووصفه المتصوفون فى كل العصور . وإنى أجـــد نفسى الآن معنياً بمشكلة الخلاص الفردى السيكولوجى . »

من هذه اللمحة القصيرة عن حياة الدوس هكسلى نرى أن أهم تجربة مر بها فى حياته هى فقده لبصره لمدةعام ونصف عام وضعف بصره المستمر وقد ساعدته هذه التجربة على التأمل والعزلة وإمعان الفـكر فـكان يمضى الأيام الكثيرة وحيداً فى حجرة الظلمة. وتظهر نتائج الإستبطان بوضوح فى كتبه التى لا تخلو من نغمة حزينة وتحسر وحقد على ما كان يطلق عليهم « قطيع الذئاب » . وقد دفعه ظلام الدنيا من حوله إلى أمعان التفكير فيما حوله والإنعكاف على ذاته متفحصاً . ويقول « لقد كنت أشعر دائماً بألم وإجهاد، الإجهاد الذهنى والجسمانى اللذين يجلبهما ألم العين ومع ذلك كنت أحمد الله على اننى أرى بهذه الصورة . » وإن كان ضعف بصره قد خلف فى نفسه جرحاً عميقاً إلا أنه تغلب على هذا العجز. «فالإيمان الصادق ، » كما يقول « يجعل الإنسان يحرك الجبال ، أما الايمان السلبى فيمنعه من رفع عود من القش . » ويظهر فى قصائده الاولى دقة الوصف الحسى الذى يعتمد على الأصوات واللمس والشم دون حاسة البصر .

ويرمز هسكلي إلى هذه التجربة فى جميع قصصه بلا إستثناء ، فأبطاله

يقاسون من عاهات مماثلة وأعمارهم تتزايد على مر السنين لكى تقابل سن هكسلى أثناء كتابه القصة ، وجميعهم من خريجى جامعة اكسفورد وكلهم طوال القامة مثله (يعتبر هكسلى أطول كاتب فى القرن العشرين) ومن النوع الانطوائى الخجول ولم يلتحق واحد منهم بالخدمة العسكرية .

فى أول مجموعة قصص قصيرة له لايلمع بطل القصة الاولى فى الرياضة ولم يكن بطلا بل كان مسالما ورفض التطوع فى الجيش .

وبطل القصة الثانية «جاى» كان أحدبابسيقان هزيلةوفقد زميله «جورج» إحدى ساقيه . وفى قصته (تلك الاوراق الذابلة) كان شيليفر مصاباً بجرح عميق فى ركبته جعله غير لائق للخدمة العسكرية وفى شعره يعتمد على حواسه ما عدا حاسة البصر . وفى (تقابل الالحان) كان بطل القصة فيليب كوارلز أعرجا يحب العزلة والتأمل . حتى فى (عالم جديد شجاع) نلاحظ أن برنارد ماركس يقاسى من شعرر بالنقص والخجل لأن نسبة الكحول فى مجرى دمه أثناء عملية التفريخ » زادت عن النسبة المقررة . ونصل إلى « ضرير فى غزه » ويظهر لنا هكسلى بنفسه فى شخصية « انتونى بيفز » وهو يتحدث مع طبيب :

— « هل تقاسى كثيراً من الإمساك ؟ »

— « لا » أجاب انتونى وهو يبتسم . . . « ليس كثيراً . »

— « تعنى ليس بشدة » قال الطبيب . « هل عندك أكزيما ؟ »

— « من آن لآخر . »

— « وقشور فى فروة الرأس. وهز الدكتور ميلر رأسه وكأنه يجيب على سؤاله . « ويصيبك الصداع ، أليس كذلك ؟ »

وكان على انتونى أن يعترف بهذا .

— « بالطبع تصلب فى الرقبة وإصابات باللومباجو . أعرف ذلك . أعرف ذلك . وبعد بضع سنوات ستصاب بعرق النسا أو تصلب الشرايين » .

سكت الطبيب لبرهة ونظر متفحصا فى وجهه . «تمام ، هذا الوجه الشاحب» . وهز رأسه . « وإحساسك بالسخرية والشك . أنت سلبى حقاً . كل ما تفكر فيه سلبى . » وضحك أنتونى ، ولكنه ضحك لكى يخفى شعوره بعدم الارتياح — « لاتظن أنى ألقى اللوم عليك بأى حال من الأحوال . » ومد الطبيب يده وربت بها على كتف أنتونى بعطف . « فكلنا ما نحن عليه . وعندما نرغب فى تغيير أنفسنا إلى ما يجب علينا أن نكون ، فليس الأمر سهلا . لا ، إن الأمر ليس سهلا يا انتونى بيفز . وكيف تستطيع التفكير إلا بطريقة سلبية وعندك تسمم مزمن فى الإمعاء . لقد ظل معك منذ ولادتك ، على ما أعتقد . لقد ورثته . وفى نفس الوقت هذا الإنحناء . تلقى بنفسك هكذا على حصانك ، إن هذا لفظيع . تضغط هكذا على عمودك الفقرى ... يكاد الإنسان يسمع صوت الفقرات وهى تسحق بعضها البعض . وعندما يكون العمود الفقرى على هذه الحالة ، ماذا يحدث لباقى الآلة ؟ إن التفكير فى هذا الأمر مخيف » .

وفى قصته « لابد للزمن من وقفه » فقد « سباستيان » إحدى ذراعيه . ولا يقتصر التشابه عند هذا الحد بل يتعداه إلى أمراض أخرى تصاب بها أبطال قصصه كالمرارة والإمساك وتقوس الظهر واضطرابات المعدة وطول النظر أو قصره ولاتخلو قصه من قصصه من الإشارة إلى هذه الأمراض وما ينتج عنها من أمراض نفسية . وهذا هو منهاج هكسلى فى دراساته فهو دائماً يشير إلى العلاقة الوثيقة بين الجسم والعقل : بين المرض ونظره الإنسان إلى الكون من حوله .

وكنتيجة لضعف البصر وعدم القدرة على الاختلاط بالآخرين كان هكسلى يقاسى من خجل شديد وأصبح يعيش فى عالمه الذهنى الخاص به ويقول « نحن دائماً نخضع لما نعمل فيه ولأن أخضع للتأمل الذهنى خيراً لى من الخضوع للعواطف ، ولأن استعمل روحي فى المعرفة أفضل من استعمالها في

الإحساس . » وكان احساسه بضرورة إظهار عواطفه للناس كتعريض جسده عاريا لهم . ويظهر عدم ميله للتعرية النفسية والعاطفية فى قصصة الأولى مثل «أنتيك هاى» و «كروم يلو» . وفى خطاب لأحد محررى المجلات الأدبية فى أمريكا كتب يقول : «إنى لا أجد غضاضة فى التحدث بسخرية عندما أكتب عن أشخاص آخرين وخاصة الشخوص الخيالية فى قصصى . أما فيما يختص بى فإنى لا أحتمل إلا التكتم» .

ويقول هكسلى ان السبب فى أعراضه عن الحفلات والسهرات والاجتماعات هو أنه لايلمع فيها ولا يتألق ، ولكن صديقه «أوزبرت سيتويل» يخالفه هذا الرأى : «كان فى ذلك الوقت يبلغ العام الثالث والعشرين من عمره ولو أنه كان أحياناً يؤثر الصمت لفترات طويلة . وكان ضليعا فى النظريات العلمية الحديثة والسياسية والفن والأدب وعلم النفس ، وكان أهلا لأن يعالج الأفكار ويلعب بها ... وكم كنت أتمتع بصحبته ، ولكنه سرعانى يؤثر الصمت ويشرد فى نوبة من التأمل العميق» .

وهكذا يرسم هكسلى شخوصه فى قصصه : شخوص تؤثر العزلة والصمت والتأمل والقراءة واللعب بالأفكار والكلمات وتسجيلها وفحصها ، شخوص لا تنفعل ولا تؤثر فيها العواطف الإنسانية الدافئة كالحب والشفقة والعطف ولكنهم كهكسلى ذهنيون يعيشون فى عالمهم الخاص بهم .

٢ — اليوميات :

ولنتساءل ، إذا كان الأديب خجولا منطويا ولا يريد الافصاح عن دخيلة نفسه فان أفضل وسيلة للتعبير عن ذاته هى «الجورنال» أو اليوميات أو الاعترافات . ونلاحظ شيئا هاما فى جميع قصص هكسلى ، وهو أن كل شخوصه الرئيسية سواء فى القصص القصيرة أو فى القصص الطويلة تحتفظ بيوميات . وربما لا نكون مبالغين إذا قلنا أن أروع ما كتبه هى تلك

الأجزاء فى قصصه التى يعبر فيها البطل عن إحساساته العميقة وآرائه وفلسفته فى الحياة وشعوره الصادر من تجاربه الذاتية واحتكاكه بالآخرين . كما يناقش فيها البطل ، ومعظم أبطاله من الأدباء ، مشاكل نقدية ويستعرض أساليب مختلفة فى تكنتك كتابة القصة .

ولدينا فى قصصه تلك الفصول الرائعة فى « ضرير فى غزة » وهى مقتطفات طويلة من يوميات أنتونى بيفز . ومفكرة فيليب كوارلز فى « تقابل الألحان » ويوميات شيليفر فى « تلك الأوراق الذابلة » التى تكون فى مجموعها ثلث القصة ، وكذلك ما أسماه سباستيان فى « لا بد للزمن من وقفه » بملاحظات عابرة . وبالإضافة إلى هـــذه اليوميات فهناك عدد كبير من المذكرات و « الأفكار » فى قصصه القصيرة .

وفى هذه اليوميات يكتب أبطال هكسلى عن إحساساتهم بعمق وفهم وإدراك ، ولا نجد فى أسلوبها تلك السخرية التى تتصف بها قصصه لأنها تعبير صادق عن نفسه وعن فلسفته فى الحياة . وكان هكسلى يسجل عادة هذه الملاحظات فى يوميات ولكنه لم يسجلها بانتظام ومن المؤكد أنه كان يستعين بما يسجله فيها عند كتابه قصصه ومقالاته . ولا بد أن ننظر إلى هذه الأجزاء التى تحتوى على يومياته نظرة خاصة ويجب معالجتها بطريقة مستقلة . وما يسجله هكسلى عادة فى هذه اليوميات هو ما يعن له من أفكار عابرة أو اهتماماته الوقتية بشىء ما . ومعظم ما فيها من مادة يدور حول موضوع واحد بالرغم من التباين والاختلاف فيها فهى تدور حول موضوع وحدة الكون ومحاولة التأمل فى النفس بقصد اكتشاف جوهرها . ويميزها طريقة السؤال والجواب وخاصة فى « ضرير فى غزة » وفى « لا بد للزمن من وقفة » وكأن هكسلى يستجوب نفسه أو يحقق معها .

وفى قصتيه « كروم يلو » و « آنتيك هاى » لا يستعمل هكسلى طريقة اليوميات ولكنه يقطع السرد القصصى ويقص علينا قصة أخرى قصيرة

يضمنها النص الأصلى . ونجد قصة « القزم » فى (كروم يلو) ويظهر فيها بوضوح شعور هكسلى بالخجل والعزلة وخوفه من « قطيع الذئاب » والعمالقة أو « الخراف الناطحة » . ومن السخرية الظاهرة اسم القزم نفسه فهو يدعى « هرقل » ولكنه ، لأنه قزم ، محروم من ممارسة نشاط العمالقة . وفى « أنتيك هاى » يحل إنسان مشوه محل القزم ونجد مسرحية قصيرة من فصل واحد فى القصة والإنسان المشوه يريد أن يحب ، يريد أن يمارس نشاط أقرانه ومعاصريه . ويمد المشوه يده إلى أعلى ويتسلق كرسيا محاولا الوصول إلى مثله الأعلى ولكنه يسقط فى بالوعة مياه قذرة قبل أن تصل أطراف أصابعه إلى ما يبتغى . وشعور كل من القزم والمشوه يمثل لناشعور هكسلى فى أيام شبابه عندما كان يقاسى من الاحباط وضعف البصر والخجل .

ولكن هكسلى سرعان ما يتحول من التحسر على نفسه والتقوقع إلى الهجوم . والهجوم فى علم النفس وسيلة من وسائل الدفاع عند الاحباط . فالقزم له عقل جبار ويستطيع أن يتفوق به على العمالقة . ويبدأ هكسلى فى اتخاذ موقف إيجابى من العمالقة فيتهكم ويسخر منهم ويبدأ أبطال قصصه الذين يدونون مذكراتهم فى التكشف لنا ويصبحون عقلاء فى عالم غاص بالمجانين ، عمالقة ذهنيون فى عالم يعج بالأقزام الجهلة ، رواقيون فى عالم الشهوات واللذات .

وأهم هذه اليوميات يوميات أنتونى فى « ضرير فى غزة » وأول ما نقرأ فيها :

« كلمات سبع تلخص لنا كل ترجمة ذاتية . « انى أرى الأفضل واستصوبه. ولكنى أتبع الأردأ . « ومثل أترابى فى الإنسانية . أعرف ما يجب على أن أفعله ولكنى أستمر فى عمل ما يجب على أن أتجنبه » .

وآخر ما كتب فيها هو تسجيله لتجربة صوفية مر بها وانتهى على أثرها

ذلك الشعور الكئيب بعجز الإنسان عن إكمال شخصيته وإنقاذها من براثن الازدواج .

وبعد « ضرير فى غزة » نجد أن تأملات سباستيان فى « لا بد للزمن من وقفة » يميزها الطابع الصوفى والغموض والخاتمة ، كما يقول هكسلى ، هى مقتطفات من يوميات بطل القصة يصحبها تعليق عنها . والحقيقة هى أن هذه التأملات نشرت قبل ظهور القصة كمقالات متفرقة فى أعداد مختلفة من مجلة « فلسفة الفيدا والعالم الغربى » وهى مجلة صوفية يغلب عليها الطابع الهندى وتصدرها « جمعية الفيدا » فى جنوب كاليفورنيا وكان هكسلى أحد أعضاء هيئة تحريرها .

وأبرز ما فى هذه اليوميات . رغم نجاح هكسلى فى الحبكة القصصية وفى دراسة المشكلة الفلسفية والنقدية والاجتماعية ، فشله فى حل مشكلته الخاصة ، تلك المشكلة التى ألقت ظلالا من الكآبة على قسمات وجوه أبطاله وكشفت عن أفكاره الذاتية التى ضمنها مذكرات أبطاله والتى تبدو أقرب ما يكون إلى ما يسمى بأدب الاعترافات . والغريب أن معظمها لا يحمل أسماء أو تواريخ أو وقائع ولا تتضمن إلا سلسلة من الملاحظات العابرة والتأملات فضلا عن بعض الحكم وأبيات من الشعر ، غالباً من شكسبير ، وتعليق مستفيض عليها . ونلاحظ أن المذكرات مكتوبة بطريقة لا أثر فيها للترابط أو التنسيق أو الترتيب الزمنى ، فقد جاءت له فى شكل شذرات متنافرة تبدو ـ لأول وهلة ـ كأنه ليس هناك خيط واحد يربطها أو يؤلف بينها . ومعظم الجمل مبتورة توحى بأن كاتبها لا يريد أن يظهر الحقيقة كلها ، أو ربما لأنها تعبر عن تجربة صوفية لا يمكن الإفصاح عنها تماما ، ففيها يكثر التلميح والإشارة والرمز . وإذا كان أسلوب قصصه سهلا ميسوراً فلا بد لنا من وقفة عند بعض عبارات مذكرات أبطاله فهى تخضع للعديد من التفسيرات والتأويلات شأنها فى ذلك شأن كتابات المتصوفين .

فى « تلك الأوراق الذابلة » يقول شيليفر فى مذكراته عن خطاب أرسله لسيدة : « لقد كانت رسالة موجهة إلى الله وليس إلى سيدة ، خطاب شرح واعتذار موجه للعالم . » وفى « ضرير فى غزة » يكتب أنتونى .

« هذه اليوميات خطوة أولى . معرفة النفس خطوة ضرورية مبدأية لتغيير النفس . إن ما يقلقنى هو اللامبالاة . فأنا لا أعبأ بالناس . أو بالأحرى . لا أريدهم . فانى أتجنب بحرص كل المناسبات التى تجعلنى أهتم بهم . جزء ضرورى من العلاج أن تقبل كل المناسبات المزعجة ما استطعت، أن تتخلى عن طريقك لتخلقها . »

وتزخر اليوميات بالعديد من زوايا شخصيته وباللمسات والإشارات التى يمكن أن ترشدنا إلى جوانب مجهولة أو تقودنا إلى ممر ننفذ منه إلى فهم حقيقته التى استطاع أن يصل إليها بعد جهد شاق. ولا يقتصر اهتمامنا بقصصه لاحتوائها على هذه الأشتات من شخصيته بل يتعداها إلى كتب رحلاته ، فكتابه « بيلاط المازح » له عنوان آخر هو « مدونة رحلة » ويصف كتابه « على الطريق » بأنه « مذكرات ومقالات سائح » وكتابه « فيما وراء خليج المكسيك» على أنه «يوميات رحالة». وسنعالج كتب رحلاته على أنها وسيلة للهروب من الواقع أو محاولة للسعي المتواصل وراء هدف .

٣ — السفر والهروب

« وإذا كانت الحال هكذا ، فما السبيل ؟ يجب على كل شخص عاقل أن يحاول بقدر ما استطاع أن يهرب . . . ولكن إلى أين ؟ إلى الفكر المجرد والحياة الذاتية ، أو « وهذا هو القرار الذى وصل إليه فيلسوفنا فى أواخر حياته » إلى التأمل صادق فى الذات العلية » .

مباحث ومتنوعات سنة ١٩٥٠

هذا هو ما كتبه ألدوس هكسلى فى عام ١٩٥٠ فى معرض دراسته عن

الفيلسوف الفرنسى (مين دى بيران) ١٧٦٦ — ١٨٢٤ الذى اعتنق فى بدء حياته الفلسفية المذهب الحسى ثم نبذه إلى المذهب العقلى وأخيراً ترك المذهبين واتجه للتصوف ، ويخيل إلينا أن هكسلى كان يكتب عن نفسه أو يلخص لنا تطوره الروحى . فقد طوف هكسلى بأرجاء عديدة من العالم كما بحث داخل نفسه ذاتها وعاد من طوافه فى العالمين شخصا مختلفا تماما عن الرحالة الخجول الذى قابلناه فى أول كتاب رحلات له وفى هذه الفترة اتخذ هكسلى لنفسه أقنعة عديدة وانتحل شخصيات كثيرة متلونة متقلبة يمكن حصرها على التوالى فى شخصية « المتسائل الحائر » ثم « عابد ملذات الحياة » ثم « طالب الخلاص » وأخيراً شخصية « المتصوف ».

ولدينا فى كتب رحلاته تسجيل متصل لما اعترى شخصيته من تغير وتطور ، فلقد كان السفر عنده بمثابة سعى متواصل للوصول إلى شىء لايدرى كنهه ، فعاش فى أوربا وخاصة فى فرنسا وإيطاليا فيما بين عام ١٩٢٣ وعام ١٩٣٠ وقام فى هذه الفترة بزيارات لهولاندا وبلجيكا وضمن حصيلة تجارية فى كتابه « على الطريق » ١٩٢٥ ، وزار الهند مع زوجته فيما بين عامى ١٩٢٥ ، ١٩٢٦ ونجد مدونة هذه الرحلة فى كتابه « بيلاط المازح » ١٩٢٦ .

وفى عام ١٩٣٤ سافر إلى أمريكا الوسطى والولايات المتحدة ونشر كتابه « فيما وراء خليج المكسيك » ١٩٣٤ . ثم قام برحلة إلى البرازيل فى عام ١٩٥٨ وهو « يعمل الآن فى قصة شبيهة بقصته « عالم جديد شجاع » وفيها يبين كيف يحاول راجا هندى مع رئيس وزراء من الغرب أن يبنى مجتمعاً إنسانيا على جزيرة وهمية بين سيلان وسومطرة » . وكان هذا الكتاب هو آخر قصة له وأطلق عليها « الطبيعة » وظهر عام ١٩٦٢ .

والرحلة بالنسبة لهكسلى رمز للشخص القلق الضجر ، وليس السفر رذيلة جسدية كما يدعى بل رذيلة ذهنية ويعلل كثرة سفره وترحاله بقوله « نحن نقرأ ونسافر كثيراً لا لتوسع مداركنا ونغذى عقولنا ، ولكن لكى

نشاها بسهولة ، فنحن نحب القراءة والسفر لأنهما من أجمل ما يعوضنا عن التفكير » . ونتساءل : عن التفكير فى أى شىء ؟ عن التفكير فى الضجر والعزلة والكآبة . فكتابه « على الطريق » سجل لرحالة وباحث فى وقت واحد . ويظهر فى هذا الكتاب ميله إلى طلب العلم والمعرفة والحقيقة ولكنه لم يجد ما كان يبحث عنه فى أوربا فاتجه إلى الشرق بروحانياته ، اتجه إلى الهند وبورما والملايو ثم إلى اليابان وأمريكا فى كتابه « بيلاط المازح » . وفى الشرق لم يجد إلا إجابة سطحية عن سؤال بيلاط « ما هى الحقيقة » ، لأن الحقيقة التى وصل إليها لم تكن كافية . فالروحانيات سائدة فى الشرق . ويقول هكسلى « لو كنت مليونيرا هنديا لتركت ثروتى لتمويل بعثة لنشر الإلحاد » . والفلسفة الهندية التى تقول إن هذا العالم وهم وأن مهمة الإنسان فى الحيـــاة هى الإفلات من عجلة تناسخ الأرواح والتجسيد ليصل إلى النيرفانا أو الفناء ، وأن الروح هى كل شىء وأن أسمى القيم هى القيم الروحية لم تستول على تفكيره فى ذلك الوقت . أما بالنسبة لمادية الغرب والانحلال الخلقى والاجتماعى فيه ، فهذه الفلسفة هى الأخرى لم ترق له . وهكذا يرجع من طوافه بالشرق أكثر تعاسة ، ويلخص انطباعاته فيما يلى :

أولا : لقد اكتسبت اعتقادين هامين جديدين . لا بد للعالم من أن يحتوى على عديد من الأنواع . وأن القيم الروحية المتفق عليها صحيحة ويجب التمسك بها .

ثانياً : إذا كان السفر يكسبنا اعتقادا بالتنوع فهو يكسبنا اعتقاداً قويا مماثلا بوحدة البشرية . فهناك تنوع لا نهاية له فى الأديان وفى القوانين الخلقيـة ، ولكل منها الحق فى أن يمضى فى طريقة . ولكن الأساس فى التنوع واحد .

ثالثاً — إن الناس ، مهما اختلفت معتقداتهم أو عاداتهم أو طرق

حياتهم ، لديهم إحساس بالقيم . والقيم بشكل عام واحدة فى كل مكان وفى كل أنواع المجتمعات لأن شعورنا بها بديهى .

وفى كتابه « فيما وراء خليج المكسيك » تبدأ أفكاره فى التبلور والنضوج وتتخذ لنفسها طريقا خاصا يختلف اختلافا كبيراً عما ألفناه من الساخر الضجر .

ومعظم آرائه فى قصته « ضرير فى غزة » ١٩٣٦ مستوحاه من تجاربه فى كتابه « فيما وراء خليج المكسيك » .

والسفر أو الطواف قد يعنى الهروب أو الفرار . أليس الأدب والتخيل والشعر نوعاً من الهروب ؟ ، هروب من المتغير إلى الأزلى ، من الزمان إلى اللازمان ، من المكان إلى اللامكان ، من عالم الواقع إلى عالم المثل ، من التعدد إلى الوحدة ، من الفوضى إلى النظام ومن المحدود إلى اللامحدود . والسؤال الذى يلح علينا دائماً هو : مم نهرب وإلى أين المفر ؟ وهنا يقدم لنا هكسلى فى أعماله مجتمعة صورة دقيقة للتطور الذى طرأ على أفكاره . ففى بادىء الأمر قد يجد الضجر الذى يقاسى من الإحباط حريته وجميل أن يكون الإنسان حراً طليقاً . ولكن هكسلى يقول « ولكنى اعترف أننى أحياناً أتحسر لأننى لم أقيد نفسى بالسلاسل ولكن الإنسان لا يستطيع أن يكون نقيضين فى وقت واحد » . ولهذا يقول بريان لانتونى (هكسلى) فى « ضرير فى غزة » : « إذا أردت أن تكون حراً فيجب أن تكون سجيناً فهذا هو شرط من شروط الحرية — الحرية الحقيقية » .

ويعبر هكسلى عن الهروب بطرق مختلفة فى قصائده الأولى ، إما كالسمكة فى أعماق البحار فى عالم مظلم غريب ، أو كراهب فى مكان ناء ، أو الهروب إلى داخل النفس عن طريق الإستبطان والانطواء أو إلى أعلى عن طريق التسامى . ولكن واحسرتاه فالنفس راغبة ولكن الجسد ضعيف .

فالسفر والهروب صنوان ، السفر هروب من المكان والفرار عن

طريق الفكر هروب من الزمان والهروب فى كلتا الحالتين هروب من النفس ذاتها واينما يسافر الإنسان فإنه يستصحب نفسه معه، وإذا تمكن من نسيانها لفترات قصيرة فهو يصحو ليجدها . ويعبر هكسلى عن الهروب من المكان فى كتب رحلاته ، وعن الهروب من الزمان فى مذكرات ويوميات أبطاله فى قصصه . وتعطيه مذكرات السائح الشعور بالحركة والتنقل والعمل وتعينه يوميات أبطاله على نسيان التفكير فيما حوله وعلى التعبير عما يجيش فى صدره من انفعالات وما يدور فى عقله من أفكار وهى بمثابة صمام الأمن لنفسه الحزينة الثائرة . وهنا نسأل : هل كان هكسلى يكتب عن نفسه عندما قال عن لورنس .

« لقد كان إحساس لورنس بالعزلة هو الذى دفعه للتجول حول الأرض وكانت رحلاته هروبا وتنقيباً فى آن واحد :

« كان يبحث عن مجتمع يستطيع أن ينتمى إليه . عن عالم لا يكون الزمان فيه ذاتياً ولا تكون فيه المعرفة الواعية قد أفسدت الحياة ، تنقيب وفى الوقت ذاته ، هروب من الشقاء والشرور فى المجتمع الذى ولد فيه ، ذلك المجتمع الذى كان يشعر تجاهه بالمسئولية رغم إحساسه العميق بضرورة انفصال الفنان عنه ، ولكن بحثه كان غير مثمر كما كان هروبه لا طائل تحته ، وفى حالة من اليأس ألقى بنفسه فى أعماق اللغز المحيط به ، إلى الليل الأسود لتلك الغيرية التى تعتبر التجربة الجنسية جوهرها ورمزها . ولقد أدى انعزال لورنس للنفس إلى طلبه العزلة جسدياً عن البشرية ولقد كان لهذه العزلة الجسدية رد فعل فى أفكاره » .

يبدو وكأنها حالة واحدة مع فارق بسيط . فلقد ألقى لورنس بنفسه فى ظلام التجربة الجنسية ليصل إلى غايته وألقى هكسلى بنفسه فى أحضان التجربة الصوفية التى جوهرها الشعور بوحدة الكون . كان لورنس يبحث عن آلهة الظلام إلى ما دون المستوى الإنسانى ، إلى الغريزة ، وكان هكسلى

يبحث عن آلهة النور إلى ما فوق المستوى الإنسانى ، إلى الروح عن طريق الحدس . فطريق الأول ارتداد إلى الحياة الغرزية ، وطريق الثانى تسامى إلى الاكتمال الروحى ، وقد أشار هكسلى إلى هذه الرحلة الشاقة مبكراً فى كتابه « دراسات قيمة » عام ١٩٢٧ :

« إن مثلنا الأعلى يقع على مماس دائرة . ويحاول الإنسان جاهداً أن يصل إليه ولكن قوة الجذب فى العالم الذى نعيش فيه تحول دون ذلك . ومن المستحيل على الإنسان أن يتحرك فى تجاه هذا المماس ليصل إلى غايته المنشودة والمحصلة الناتجة من رغبته الدافعة المماسية والقوى التى تؤثر عليه ترسم لنا الطريق الحقيقى لحياته الزمنية » .

ويتضح التشبيه إذا فرضنا أن الكرة الأرضية تسير فى خط مستقيم فى الفضاء إذا تركت حرة الإرادة . ولكنها توجد بجوار الشمس ولهذا تتخذ لنفسها مداراً بيضاوياً . فإذا ما فقدت الشمس فجأة قوة جاذبيتها فستنطلق الأرض فى الفضاء فى خط مستقيم مماسى للمنحنى الذى كانت تسير فيه وهى تحت تأثير جاذبية الشمس . وليست الأرض جسما عاقلا وإلا لاستطعنا أن نقول إنها تحاول أن تسير فى خط مستقيم ، وطريقها الحالى هو المحصلة الناتجة من رغبتها المماسية وقوة جذب الشمس لها . ويقصد هكسلى أن الإنسان يريد دائماً أن يتسامى وأن تشف روحه ولكنها مقيدة بحبل سرى إلى الجسد الذى يجذبها إليه فالنفس راغبة ووثابة ولكن الجسد ضعيف . فالهروب إذن بمعناه الروحى هروب من الجسد وهو غرزى فى الإنسان وفى الترحال والسفر استطاع هكسلى أن يجد نفسه وينساها . ونقرأ فى قصته « تلك الأوراق الذابلة » من مذكرات شيليفر :

« الهروب من المكان . . ليس هروبا بمعنى الكلمة والهروب من الزمان ليس كافياً . والهروب إلى الخيال المحض لا يمنع الواقع من الاستمرار ، فما هو إلا تجاهل للواقع . وأخيراً فهناك هؤلاء الناس ، وهم أشجع من الهاربين ،

الذين يلقون بأنفسهم فى خضم الحياة الواقعية المعاصرة حولهم ، وعزاؤهم أنهم يجدون وسط قذارتها وغبائها وبشاعتها ، دلائل على وجود العطف والإحسان والشفقة وما شابه ذلك » .

وهكذا وبعد تفكير عميق وسعى متواصل استطاع هكسلى أن يعود إلى الواقع الذى كان يهرب منه ، إلى واقع ذاته وتمكن من الهروب من المتاهة النفسية التى يمكن أن تضل النفس فيها طريقها . لقد تحقق من أن « المطلوب حقيقة ، ليس هروباً جسدياً أو انطوائية بعيدة عن الواقع ، بل القدرة على القيام بنشاط ضرورى بروح طيبة دون ارتباط ، بروح تتجلى فيها فناء الذات » . وأصبح الاكتمال والاستنارة لا يأتيان إلا عن طريق ترويض النفس ذاتها وهذه تجربة لابد لكل إنسان من ممارستها بنفسه . « فالاستنارة » كما يقول «لا تأتى إلا للذين تعلموا كيفية تقبل الواقع والعمل على تغيير شكله» والكاتب الذى يكتب مثل هذا الكلام فى نهاية رحلة شاقة قد وجد نفسه وعرفها .

٤ — المسائل الحائر

وقد أحطنا حتى الآن بأطراف من حياة هكسلى وتطوره الذهنى والروحى وسنبدأ باستعراض أعماله مجتمعة فى ضوء هذه المعلومات عنه . وإذا نظرنا إلى حياة هكسلى كما تعكسها كتبه لوجدنا أن من أهم أسباب الإحباط فى حياته المبكرة عدم استطاعته الوصول إلى ما يصبو إليه . فقد كانت مثله العليا وأهدافه على مستوى عال ولم يصل إليها لأنه كان دائماً يسخر منها ويتهكم عليها . ولكنها كانت هناك دائماً تؤرقه وتلح عليه . وأدى هذا الإحباط إلى نوع من اليأس دفعه إلى تدنيس كل ما هو مقدس والسخرية من كل ما هو متعارف عليه . فهاجم التقاليد والقيم والعلم والدين والعادات واستطاع فى الفترة الأولى من حياته أن يملأ هذا الفراغ الروحى بأشياء شتى . ويمكن

حصر هذا الصراع النفسى فى صراع بين المثل العليا والقيم من جهة والحقائق العلميـة من جهـة أخرى ، وصراع آخر بين الجسد والروح ، بين القلب والعقل ، وظلت المعركة لفترة طويلة لأن « المتسائل الحائر » كان يقاسى مما يطلق عليه هكسلى « فقر دم فى الإرادة » وكانت أسباب هذا الإحباط كثيرة منها الفلسفات المتعارضة سواء فى العلم أو فى الأخلاق أو فى الدين . ثانياً ، نزعته الانطوائية ، ثالثاً ، الصدام بين النزعة الانطوائية وبين النزعات الفردية الانبساطية الأخرى فى مجتمعه ، رابعا ، ضعف بصره وإمكانياته الجسمانية وأخيراً نظرته الثنائية لما حوله ولنفسه . وباختصار يمكن القول بأنه كان هناك صراع بين ما كان يدركه بعقله الواعى وبين ما كان يحس به بعمق فى قرارة نفسه .

وكانت نظرته الأولى للعالم من حوله نظرة متشبعة متعددة لأنه كان يشعر بالتعدد والازدواج فقد نشأ فى عائلة برز أفرادها فى الحقلين الأدبى والعلمى ويقول :

« فعندما ننشأ منذ الطفولة ونشب على أن نفكر بطريقة مادية فى مجموعة من الظواهر وبطريقة مثالية أو حتى صوفية فى البعض الآخر ، نجد أنفسنا وبطريقة طبيعية ، نختار اتجاهاً ذهنياً معيناً فى بعض الأحيان واتجاها آخر مخالفاً إن لم يكن عكس الأول أحيانا أخرى . فالتذبذب يكاد يفرض علينا فرضاً . ولهذا نجد أنفسنا نحيا حياتنا الذهنية بدون استقرار » . وكانت مشكلة الازدواج هذه من أهم المشاكل التى اعترضت حياته فى بادىء الأمر . ويظهر الازدواج فى أول قصـة قصيرة له وكانت طريقته فى النظر إلى الأشياء والتجارب من زوايا مختلفة هى التى أعطته ذلك السلاح الرهيب الذى يستطيع به أن يتحكم ويسخر من العالم حوله . فقد كانت طريقة « المتسائل الحائر » هى تحيير العامة « وضع مثلا علم وظائف الأعضاء بجوار التصوف (لقد كانت لحظات التجلى عند مدام « جيون » تأتى إليها بشكل واضح وبكثرة

فى الشهر الرابع من الحمل) . ضع مثلا علم الأصوات بجوار موسيقى باخ (دعونى أشير إلى طريقتى فى قصتى (تقابل الألحان) عندما أشرت إلى وصف الموسيقى من الناحية العلمية والجمالية) ، ضع الكيمياء بجوار الروح (فغددنا الصماء تفرز مزاجنا وطموحنا وفلسفتنا فى الحياة) وهذه القائمة التى تحوى المتناقضات يمكن إطالتها إلى مالا نهاية » .

ولقد كان « المتسائل الحائر » مغرما بدراسة الظواهر المختلفة المتقاربة فى وقت واحد، ولكن إذا نظرنا إلى الحقيقة بهذه الطقرية فستبدو شاذة للغاية وهذا هو ما أراده المتسائل الحائر للحقيقة أن تبدو . ونقرأ فى « تقابل الألحان» ١٩٢٨ من مذكرات فيليب كوارلز :

« تأمل موسيقى بيتهوفن .التغييرات فى الأمزجة والانتقالات المفاجئة ، (وقار يتبعه مزاح ... وكوميديا تشير فجأة إلى المآسى فى حركة «الاسكروز») وأكثر ما يشير الاهتمام هو التغير فى اللحن ، وليس هذا من نغم إلى نغم، بل من مزاج إلى مزاج . فتقدم لنا فكرة ، ثم تتطور وتغير شكلها وتشوه حتى تصبح مختلفة عن الفكرة الأولى ولو أنها لا تزال كما هى إلى حد ما .. ضع هذا فى قصة . كيف ؟ الانتقالات الفجائية سهلة للغاية . كل ما تتطلبه هو عدد كاف من الشخوص وحبكات متوازية تقابل الواحدة الأخرى . فبينما يقتل « جونز » زوجته نرى «سميث» يدفع بعربة الأطفال فى الحديقة . حاول أن تتعاقب الأفكار . هذا يثير الاهتمام، ولكن الألحان والتغييرات أصعب . فالقصاص يلحن عن طريق ازدواج المواقف والشخوص وخلطها فهو يعطينا صور شخوص عديدة تقع فى الغرام ، أو تموت ، أو تصلى ، بطرق مختلفة — شخوص متشابهة تحل نفس المشكلة . أو بالعكس ، شخوص متشابهة تجابه مواقف مختلفة . وبهذه الطريقة يمكنك أن تلحن عن طريق الأوجه المختلفة لفكرتك ، وتكتب عن التغييرات لأى عدد

من الأمزجة . وطريقة أخرى : يستطيع القصاص أن ينظر إلى الأشياء بعين الأزل وينتقى ببساطة حوادث قصته فى أطوارها المختلفة — العاطفية، العلمية ، الاقتصادية ، الدينية ، الميتافيزيقية، إلخ: وينتقل من واحدة لأخرى — من الناحية الجمالية للأشياء مثلا إلى الناحية الفيزيوكيميائية . من الناحية الدينية إلى الناحية الفسيولوجية أو المالية . ولكن ربما كان فى هذا نوعا من السيطرة الاستبدادية لقدرة الكاتب » .

وقد فرض هكسلى على أعماله فى تلك الفترة ما أسماه « الفوضى المنظمة » أو « البعثرة المنهجية » وبهذا كان يذكى نار الانفصال والازدواج والحيرة فى نفسه . فإذا ما تحللت الشخوص والحوادث هكذا إلى عناصرها الذرية والأولية فإنها تخبو من الوجود كشخوص آدمية متكاملة وتصبح سلسلة من الحالات المتنافرة . ويقول هكسلى : « إن مؤلفك العظيم يتسلط عليه شيطان لا يستطيع الفنان السيطرة عليه . وإذا أراد الشيطان أن يظهر فسيظهر مهما كان احتجاج عقلك الواعى الأرستقراطى الذى يسكن معه . . . إنى أكتب ما أعرف أنه عبث » .

ويظهر عدم إيمانه بهذه الطريقه التى أطلق عليها «الطريقة المجهرية» فى قصته « تلك الأوراق الذابلة » عندما يستعرض شيليفر يده من زوايا مختلفة وينتهى به الامر إلى أن يقول « فربما كل شىء يتوقف فى النهاية على العقل ، على الروح ، أما الباقى فمجرد وهم أو خيال ! صور خادعة . » وظل هكسلى ، بالرغم من احتجاج عقله الواعى ، يعيش فى حالة من « المعايشة العدائية » ، وأعتقد أن أحسن ما يلخص لنا هذا الازدواج فى شخصيته فقرة من إحدى رسائل د . ه ، لورنس يقول فيها : « إن لكل إنسان أكثر من ذات واحدة وإن «الدوس» الذى يكتب هذه القصص ما هو إلا «الدوس» واحد صغير بين آخرين ، أطيب منه ، لا يكتبون القصص » وربما كان الازدواج

فى شخصية هكسلى محاولة من جانب الأديب للتعرف على ذاته الأصلية ، محاولة للتوفيق بين دكتور جيكل ومستر هايد ، محاولة للوصول إلى التكامل. وقد حاول هكسلى كثيراً أن يتغلب على هذا الصراع النفسى بعزل نفسه عن مجتمعه ولكنه فشل وحاول مرة ثانية أن ينغمس فى حياة معاصريه ويلقى بنفسه فى ملذات الواقع ولكن نزعته الانطوائية تغلبت على هذا الشعور . وأخيراً اتجه إلى التهكم والسخرية فالهجوم فى علم النفس نتيجة للاحباط وأعلى مراتب هذا الهجوم الانتحار وهو هجوم موجه إلى الذات نفسها ، ولكن هكسلى لم يصل إلى هذه المرحلة التى وصلت إليها « فيرجينيا وولف » مثلا لأنه يقول : « إنك لا تستطيع أن تكون شيطاناً إلا إذا كنت فى قرارة نفسك تؤمن بالله » . ولنسأل : أمن الضرورى أن يمر كل كاتب أو أديب بهذه المرحلة الشاقة من التذبذب ، ألا تأتى الحياة الفاضلة المتكاملة إلا بعد هذا الصراع العصيب بين الأنا واللاأنا ويقول ديفيدا تشيس إنها نفس المشكلة القديمة التى واجهت الشاعر « ميلتون » فى « الفردوس المفقود » فالحياة قبل الخطيئة الأولى فى جنة عدن لا تلائم إلا نوعاً سلبياً من الفضيلة ، وكان « ميلتون » لا يهتم حقيقة بهذه الحياة . فبعد الخطيئة فقط ، وفى الصراع الذى بعد السقوط لمحاولة تضييق الفجوة بين الواقع والامثل توجد حياة الفضيلة الحقة ولو أنها غير سهلة . ولهذا فالخطيئة كانت شيئاً حسناً » .

والإحباط سيكولوجياً يعنى « حالة تعلق فيها الدوافع المتجهة نحو هدف أو تمنع قبل إتمامها أو إشباعها » . وأول إحباط صادف هكسلى فى حياته كان عندما ترك دراسة الطب ليدرس الأدب . ويظهر هذا الإحباط مع كل أبطال قصصه . فيموت « ديك » بطل قصته القصيرة الأولى قبل أن يحقق حلماً راوده وهو الخروج بنظام فلسفى جامع شامل ، و « دينيس ، فى « كروم يلو » ١٩٢١ لا يحقق شيئاً ويفكر مرتين فى الانتحار كما يقتل القزم

نفسه ، « وجمبريل » فى « آنتيك هاى » ١٩٢٣ يعتزل مهنة التدريس ويشغل نفسه لفترة باختراع سراويل لها مقعد من المطاط لتساعد من هم نحيلى الجسم مثله فى الجلوس على المقاعد الخشبية الصلبة ، وأخيراً يفشل فى مشروعاته ويرحل عن انجلترا . وأبوه كذلك لم يوفق فى تصميمه الجديد لمدينة لندن ويظل التنظيم دون تنفيذ على مكتبه ، أما محاولات الفنان « ليبيات » فى الرسم وكتابة الشعر فقد أخفقت جميعها ونراه آخر مرة يفكر فى الانتحار. ولم يتحقق زواج مسز « فيثيتش » من تونى وتوفى قبل الحدث السعيد ، كما يموت الإنسان المشوه فى مستشفى للمجانين قبل أن تصل أطراف أصابعه للنجوم . وفى « تلك الأوراق الذابلة » ١٩٢٥ أطلق هكسلى على الفصل الثالث « غراميات لا تتلاقى » ولهذا لا يتزوج لورد « هوفندون » من آيرين وتموت خطيبة « كاروان ، البلهاء قبل الزفاف ؛ وفى « تقابل الألحان » ١٩٢٨ يقتل « ايفيرارد ويبلى » وهو الشخص النشيط الوحيد فى القصة وكانت زوجة « فيليب كوارلز ، قد وقعت فى غرامه ، ويظل زوجها طوال القصة يتذبذب بين حياته الذهنية وحياة اللذة ، والواقع التى ينادى بها « رامبيون » ويمثل د . ه . لورنس .

وفى علم النفس نرى أن الإحباط يظهر فى صورة هوة فاصلة بين الإرادة والوعى من ناحية وبين القدرة على توفير مطالبها من ناحية أخرى . وكان هكسلى يعانى فى الفترة الأولى من ناحية حياته صراعاً عصبياً نتيجة لقيام هذه الهوة التى جعلت تزداد عمقاً واتساعاً . فى قصائده الأولى يظهر هذا الصراع فى بدء حياته فى صورة جدال بين الانا والهى . ولم تكن فلسفته فى الفترة الأولى إلا فلسفة للتبرير كما يقول . وعندما تقدم به السن وازدادت تجاربه أدرك أنه من الضرورى ترويض الإرادة والتحرر من الرغبات لا عن طريق مقاومتها والتهكم عليها كما فى حكاية « العنب الحصرم » بل عن طريق الإبقاء عليها كمصادر للطاقة التي تدفعنا إلى مداومة البحث عن

طرق أخرى للوصول إلى الأهداف دون التنازل عنها . وطريقة « العنب الحصرم » جزء مما يطلق عليه فى علم النفس الميكانيزمات الدفاعية العدائية والسلبية — الهجوم والتهكم أو الانعزالية « والعنب الحصرم » . ويؤثر أبطال قصصه الأولى العزلة والسخرية على الهجوم ، ففى « كورم يلو » لا يستطيع « دينيس » أن ينافس « أيفور » أو « جامبولد » . وفى « أنتيك هاى » ظل « جمبريل » ضعيفاً أمام « رامبيون » و « ميركابتان » وفى « تقابل الألحان » لم يستطع فيلب كوارلز ، أن يقلد رامبيون أو ايفيرارد أو سباتدريل . ولكن هكسلى لم يكن سعيداً حتى فى عزلته وانطوائه ويقول : « يشعر الانطوائى بوجود العالم الخارجى رغم أنه لا يعلم عنه شيئاً ، وإذا كان لا يعرف شيئاً عن أقرانه وعن النظام الاجتماعى ، فهو رغم هذا يشعر بوجودهم باستمرار ، ويشعر بقلق لأنه يعتبرهم دخلاء معادين ولهذا ينتابه شعور بالنقص ، بالعزلة ، ويشعر أنه ولد بوجه مختلف » . وكثيراً ما نجد أبطال قصصه الأولى مشغولين بهذا الوجه المختلف . فيردد «دينيس» نفس السؤال ، ويضع «جمبريل» لحية مستعارة على وجهه ليغير من شكله ، أما أنتونى فى « ضرير فى غزة » فكان زملاؤه يطلقون عليه « بيفيس صاحب وجه الطفل » :

وهكذا يظهر الإحباط والازدواج فى حياته المبكرة وقد أبرزنا بعض الظروف العائلية التى أحاطت بنشأته ، وهى ظروف تساعد على الازدواج فى التفكير ويتجلى فيها الصراع بين العلم والدين ، وبين العقل والقلب ، وبين الأنا والهى . ولا شك أن هذا الصراع قد خلف عنده شعوراً عميقاً بخيبة الأمل وأعده أخيراً خير إعداد لقبول فكرة التحرر والخلاص والدعوة لحياة الروح والتصوف فى كثير من الحماس فى كتبه الأخيرة . فقد صادفت هذه الاضطرابات العاطفية والتشاؤم والسأم والضجر بالحياة وبالنفس تربة نفسية ذات استعداد خاص ، وكانت النتيجة ذلك التحول العظيم من الفلسفة

التشاؤمية إلى الفلسفة الصوفية التفاؤلية . وفترة الإحباط كانت شراً لابد منه لتنقية النفس وتصفيتها وتطهرها ، وكما يقول الشاعر و . هـ أودن فى قصيدته « عصر القلق » :

إن عقولنا تصر على اضطراب نظامها كعقاب لها .

فإن كان الإحباط والانطوائية قد أبعدا هكسلى عن الحياة والعالم فى بادىء الأمر إلا أنهما ، بطريق غير مباشر ، قد عملا على إعادته إلى العالم الرحب العريض ، إلى الآفاق الواسعة ، إلى الطريق الذى أبعداه عنه وتمكن قبل فوات الأوان من أن يعود إلى توثيق الصلة بينه وبين الوجود عامة ، ونرجو أن نناقش فى الجزء التالى من هذه الدراسة أثر د . هـ . لورنس فى فلسفة هكسلى فى الفترة ما بين عام ١٩٢٨ وعام ١٩٣٤ ثم تصوفه فى الفترة الأخيرة .

٥ – الفترة الثانية

يبدأ هكسلى فى الفترة الثانية من حياته (١٩٢٧ – ١٩٣٤) فى الهبوط بمستوى مثله العليا حتى تصبح فى متناوله فى محاولة لإنهاء الاحباط والتشاؤم والعزلة . فالإنسان الذى ليس له مثلى عليا ، كما يقول ، سيكون تحت رحمة القوى التى تؤثر عليه من الخارج ومن الداخل . والإنسان الذى لديه مثل أعلى ممكن ولكنه صعب المنال يستطيع أن يتقدم تقدماً كبيراً . أما الإنسان الذى يختار لنفسه مثلا أعلى لا يمكن تحقيقه يملأ قلبه الحزن لأنه يستعين بما حوله من قوى ولكنه يناضلها وبالتالى يصيبه الإحباط .

هكذا تبدأ الفترة الحرجة فى حياة هكسلى ، فقد أنزل ببساطة مثله الأعلى من على نماس الدائرة ووضعه على محيطها ، ويبرر تصرفه فى أحد قصائده بقوله « إنى أجاهد فى الصعود ولكنى ما زلت أمسك بالأقرب » ويقابل هكسلى د . ه . لورنس أول مرة فى عام ١٩١٥ ولم يتأثر بأفكاره كثيراً لأن هكسلى فى ذلك الوقت كان ، كما يقول ، « رجلا حريصا » ، وكان حديث لورنس دائماً يدور حول الأشياء البعيدة والذاتية البحتة . وتقابلا بعد ذلك بعد الحرب العالمية الأولى ثم فى عام ١٩٢٦ فى إيطاليا ، ومنذ ذلك الوقت وهكسلى يلازم لورنس حتى وفاة الأخير فى عام ١٩٣١ . وبدأت أفكار لورنس تؤثر فى حياة هكسلى وكتاباته ، وكتب هكسلى فى عام ١٩٢٧ فى يومياته :

« إن فى هذا الرجل (يقصد د . ه ، لورنس) شيئاً مختلفاً وعظيما فى

النوع وليس فى الكم » ، ثم كتب فى عام ١٩٢٩ يقول « إن ميثولوجية مستر د . ه . لورنس الطبيعية الجديدة — جديدة فى شكلها ولكنها قديمة موضوعها — تبدو لى كمذهب مثمر فى إمكانياته . » وبدأ هكسلى يفكر جدياً فى تطبيق فلسفة لورنس الجنسية الحيوية ، واستمرت فلسفة لورنس « الصوفية المادية » تفتن هكسلى حتى أدرك فى النهاية أنها لا يمكنها بأى حال من الأحوال أن تحل محل « الصوفية الروحية » التى كان يصبو إليها . فقد كان لورنس وهكسلى مثل النار والماء قد يتجاوران ولكن من الصعب مزجهما . ولكن صداقتهما كانت صداقة متينة وكادت هذه الرابطة القوية بينهما تجعل من هكسلى لورنس آخر أو « عاشقاً للحياة » . وقد حاول هكسلى جاهداً فى هذه الفترة من حياته أن يجمع بين عالم الجنس وعالم الدين ، عالم الروح وعالم الجسد ، وحاول أن يعيش الحياة طولا وعرضاً ، على المحور الرأسى وعلى المحور الأفقى ، أن يحصل على ما يريد كما ونوعا . ولكن تكوينه العقلى والجسمانى كان سبباً فى منعه من المضى فى ممارسة هذه الحياة الصعبة . ويقول « ومن على هذا المستوى البشرى المتنوع يستطيع أى فرد أن يتحرك إلى ما لا نهاية ، إلى أعلى أو إلى أسفل ، ناحية الوحدة مع الأصل الإلهى الذى هو أساس وجود الفرد ووجود الكائنات أو إلى أسفل أطراف جحيم الانفصال والإثرة وحب النفس . أما فيما يختص بالحركة الأفقية ، فحرية الاختيار مقيدة هنا ومن الصعب على الإنسان أن يغير تركيبه الجسمانى إلى نوع آخر » . فالناس تختلف فى أمزجتها وطبيعة تكوينها الجسدى على المستوى الأفقى . وتختلف فى القدرات على المحور الرأسى . ولا يستطيع الانبساطى النزعة أن يغير مكانه على المستوى الأفقى ويصبح انطوائياً ، والعكس صحيح . ولكن كل منهما يستطيع أن ينمى قدراته على المستوى الرأسى . وبالرغم من التفاوت الكبير بين الاثنين فقد حاول هكسلى أن يجعل من نفسه شبيهاً بلورنس الذى يعتمد على القوة الحيوية التى تزحف تحت

جلده ، واعتنق هكسلى هذه الفلسفة وأضافها إلى فلسفاته الأخرى وأخذت ميثولوجية لورنس الطبيعية التى تمجد « الدم والبروتوبلازم والحياة التلقائية » تحول انتباه هكسلى إلى حياة الإنسان الفطرى النبيل ، حياة العيش الغرزى. وفى عام ١٩٣٤ أو ماقبل ذلك أدرك هكسلى أن طريق لورنس طريق شائك لا يناسبه ، ونقرأ له فى « فيما وراء خليج المكسيك » وبعد وفاة د.هـ. لورنس « لا يمكننا أن نقبل دعوة لورنس ، فقد تصفح لورنس كتاب التصوف وقرر أن ما وجده هناك هو تفوق الدم وأحقيته » .

٦ — صورة د . هـ . لورنس فى « تقابل الألحان » ١٩٢٨

وأول صورة تظهر للورنس فى أعمال هكسلى هى صورة كينجهام فى عام ١٩٢٦ والصورة الكاملة تظهر فى « تقابل الألحان » فى شخصية رامبيون. ويبدو أثر فلسفة لورنس الطبيعية فيما يشبه المونولوج الداخلى فى مذكرة فيليب كوارلز الذى يمثل هكسلى :

« وبعد بضع ساعات فى صحبة رامبيون ، كان فعلا يؤمن بالبدائية الفطرية النبيلة ، كان يشعر باقتناع بأن العقل الواعى لابد له من أن يتواضع قليلا ويتقبل مطالب الجسد والقلب — نعم والأمعاء والعظام والجلد والعضلات ، لابد أن يكون لها نصيبها من الحياة ، يا ليتنى أستطيع أن أحصل على شىء من سره ! سأذهب لرؤيته عند وصولى إلى انجلترا » . ولقد صور هكسلى لورنس فى هذه القصة تصويراً رائعاً وأعطى له صورة رجل يفيض بالحيوية والنشاط يعيش عيشة غرزية طلقة . ولكن هذه الصورة سرعان ماتكشفت لهكسلى فى عام ١٩٢٤ حين أدرك وعورة الطريق :

« إن التطور من الحالة البدائية إلى الحالة الحضارية ، من مجرد العيش فى الدم إلى العقل والروح ، تقدم له ثمنه المحدد . وليس هناك تخفيض فى الثمن حتى لهؤلاء المشترين من أصحاب المواهب الفذة . ولقد كنت أظن

إنه يمكننى تجنب دفع الثمن ، أو على الأقل تخفيضه تخفيضاً كبيراً ، وأنه من الممكن أن يستفيد الإنسان من العالمين . ولكن هذا ، كما أعتقد ، ما هو إلا وهم ؛ فالثمن الذى يجب أن ندفعه سبيل العقل والروح لا يمكن بأى حال من الأحوال تخفيضه » .

وفى « تقابل الألحان » حاول هكسلى أن يصل إلى تركيب فلسفى جديد وكانت مشكلته هى التوفيق بين مطالب الجسد ومطالب العقل والروح، أو الجمع بين الاستمتاع الكامل بالحياة من حوله مع الاحتفاظ بالمسافة بينه وبين مجتمعه . ولكنه لم يوفق . ونقرأ فى يوميات فيليب كوارلز : « كان دائماً يعرف فى قرارة نفسه أنه لم يكن كاثوليكياً ، أو رجلا يحب العيش الرغيد ، أو متصوفاً أو إنساناً فطرياً ولو أنه كان يأمل أحياناً فى أن يكون واحداً منهم أو كلهم مجتمعين . إلا أنه كان سعيداً لعدم كونه واحداً منهم وفى استطاعته أن يتمتع بحريته حتى ولو كانت حريته هذه ، بطريقة متناقضة ، عقبة فى سبيل نمو روحه » .

ومن ناحية الصنعة الفنية فى هذه القصة نرى أن طريقة كتابتها توحى إلينا بأن لورنس لم ينجح تماماً فى التأثير على أفكار هكسلى . فالعقل الذى ركب أجزاء القصه المعقدة وحوادثها ورسم شخوصها الكثيرة العدد عقل واع وليس بعقل يتصرف تلقائيا . فى القصة مجهود فنى كبير وآراء متشعبة تتنافى مع التلقائية التى ينادى بها هكسلى فى القصة . ولا تحقق جميع الشخوص شيئاً يذكر فى القصة وتتحرك آليا وكأنها أشباح لا شخوص من دم ولحم . ولا نرى رامبيون إطلاقاً وهو يمارس الحياة الغرزية الفطرية النبيلة ، فهو يتكلم عنها طول الوقت ولا يفعل شيئا . وتركيب القصة الموسيقى وعنوانها لا يوحى بالتوافق فى الألحان فهى محشوة بخليط من الأنغام المتنافرة المتناقضة قصد بها هكسلى أن يعرض لنا الشىء الواحد من وجهات نظر مختلفة (أنظر

« موسقة القصة » فى « القصة فى الأدب الإنجليزى » ويظل فيليب كوارلز الشخصية المحورية فى القصة ونقرأ أخيراً فى يومياته :

« حياة كاملة مؤتلفة النظم — هل حقاً ستكون ممكنة ؟ إنى أتخيلها :

ولكن ، فى الحقيقة . . . ؟ وعلى كل حال ربما يكون من المثير رسم شخصية على هذا النمط » .

وقد كان من المثير ومن السهل رسم شخصية لورنس فى قصة ، ولكنه كان من المستحيل على هكسلى تقمصها فى الحياة نفسها وظل هكسلى فى عالم الحس والشعور واللذة والجنس كما كان دائما : المتسائل الحائر . ولم يكن لورنس بعد كل هذا آخر ورقة رابحة فى يد هكسلى ، فقد كانت الورقة التى قبل الأخيرة . فهل يا ترى ستكون الورقة الأخيرة خاسرة هى الأخرى ؟ .

ميثولوجيه د . ﻫ . لورنس الطبيعة من الناحية النظرية :

تقابلنا فلسفة د . ﻫ . لورنس مرة أخرى فى كتاب هكسلى « افعل ما يحلو لك » ١٩٢٩ وهو مجموعة من المقالات حاول فيها هكسلى أن يبلور فلسفته اللورنسية الجديد . وأخذ يصب جام غضبه على « باسكال » ويدرس العلاقه بين التركيب الجسمانى والمزاج الشخصى وأثرهما فى الإنتاج الفلسفى . والمقالات دراسات فى نوع الكون الذى يسكنه ويؤمن به أفراد من أحجام وخصائص جسمانية متباينة ، وفى نوع العبادة التى يفضلها كل منهم . وهاجم باسكال لأنه كان يؤمن وينادى بالمطلق :

« والمطلق ما هو إلا تجريد من الحياة نفسها ، هروب من التعدد إلى كائن بلا كينونة . فالعالم الروحى بديل هزيل للعالم الواقعى » .

لقد كان باسكال يريد المطلق لأنه كان فى مسيس الحاجة إلى نوع من الاستقرار والنظام . وأخيراً يرفض هكسلى المطلق لأنه لا يقبل أن يفرض عليه باسكال فلسفته التى كيفها مرضه وجسده ومزاجه الشخصى . فليس للرجل المريض أن يصدر أحكاما على تصرفات الأصحاء ، وأصبحت فلسفة

باسكال ، أو «ميتافيزيقا النور الحيا» كما يسميها هكسلى ، ضد حيوية ما ينادى به هكسلى .

وهكذا يترك باسكال وفلسفته لأنه يذكره بالموت وبالزمان وبالمرض وبالمطلق وبالروح وبالتسامى ويحب لورنس لأنه جعله يفتح عينيه على ملذات الحياة وما يكشف عنه العيش الغرزى والدم والحياة وما يحس به المعافى من متعه بالعالم . وفى الجزء الأخير من الكتاب بلورهكسلى فلسفة لورنس الجديدة فى الحياة الفطرية ، فالحياة على هذا الكوكب قيمة فى حد ذاتها دون الإشارة إلى عالم علوى سماوى أو ما لا نهايات أو حيـــاتنا فى المستقبل . وحيث أن الغرض من الحياه هو أن نعيش فلابد إذن من أن يكون هناك تباين وتعدد . ولهذا يرى فى قصيدة الشاعر بليك « زواج الجنة والجحيم » أعظم تعبير عن « ميتافيزيقا حب الحياة » وملخصها هو أن يحاول الفرد أن :

« يعادل الإفراط فى المعرفة الواعية بإفراط مماثل فى الحدس وفى العيش الغرزى ، يحاول أن يعادل الآثار السيئة المترتبة على الإفراط فى التأمل بافراط مماثل فى العمل والحركة ، والإفراط فى العزلة بالإفراط فى الإختلاط والإفراط فى المتعة بالإفراط فى التقشف »

ويقول لنا « س . م . جود » فى كتابه « عودة إلى الفلسفة » ص ٦١ فى نقده لمذهب هكسلى الحيوى هذا :

إذا حكمنا على مذهب هكسلى فى الحيوية . . فإن هكسلى شخص تافه . فهو لا يستغل قواه الجسمانية استغلالا تاما . وهو لا يعيش حياة الرغبات أو الحواس ، وأفعاله لا تتسم بطابع الخشونة أو القوة ، وهو بعيد عن الطبيعة ولا يختلط بالعالم من حوله وأخشى أنه لا يعرف حتى كيف يستمتع بأكلة طيبة . لا ، أن هكسلى لا يتمتع بحيوية دافقة » .

وبالإضافة إلى هذا ففلسفة حب الحياة والإفراط تفشل فى المدى الطويل حسب قانون تناقض الغلة أو قانون الجهد العكسى .

لتطبيق العملى لميثولوجيه لورنس الطبيعة

تعتبر قصة هكسلى القصيرة الطويلة « ما بعد الصواريخ » فى عام ١٩٣٠ نقطة تحول خطير فى إنتاجه الأدبى فنرى فيها تطبيقا لمذهب لورنس الحيوى وميثولوجيته الطبيعية . فقد كان لفلسفة الإنسان الفطرى النبيل أو الحياة الجنسية بريقها الخاطف وسحرها لفترة قصيرة كالألعاب النارية أو الصواريخ، وسرعان ما أطبق الظلام على هكسلى من كل جانب . ونرى فى شخصية بطلها « مايلز فاننج » ظلالا من شخصية « رامبيون » الذى قابلناه فى « تقابل الألحان » ولكنه أخذ يتقدم فى السن تقدماً سريعاً ، نراه رجلا بدون حيوية دفاقة ، رجلا مريضاً متعبا ضعيفاً يستشفى فى إيطاليا . وكان من عادة هكسلى أن يزيد من سن أبطاله فى قصصه تدريجيا ، ولكننا نرى « مايلز فاننج » وقد بلغ فجأة من العمر خمسين عاما ، وكأن هكسلى يريدنا أن نرى آثار حياة الإسراف والجنس بأسرع مما كنا نتوقع . « فمايلز فاننج » رجل متعب من ممارسة حياة المتعة مصاب بالصفراء ، نراه وقد غابت عيناه واصفرت بشرته . وربما كان هكسلى فى ذلك الوقت يفكر فى صورة لورنس قبل وفاته فى عام ١٩٣٠ وأثناء مرضه ، فقد بدأت الحيوية التى كانت تتدفق من لورنس تتخلى عنه ورأى هكسلى مثله الأعلى يحتضر أمام عينيه .

ولقد فشر مايلز فاننج فى أن يعادل الإفراط فى المتعة بافراط مماثل فى التقشف واضطر أخيراً إلى أن يعيش فى عالم الرجل المريض، عالم باسكال الذى كان هكسلى يحاول جاهداً أن يهرب منه . فلو لم يسمح مايلز فاننج لنفسه بالانغماس فى ملذات الحياة وممارسة العيش الغرزى « لما ذهب إلى أقبية مونت كافو ، ولو لم يخلع ملابسه لما أصابه هذا البرد فى كبده ولما أصيب بالصفراء » . ويعترف هكسلى فيما بعد فى مقدمته لرسائل د. هـ. لورنس :

إن لكل عمر من أعمار الإنسان فلسفته المناسبة فى الحياة . ولابد أن أعترف أن فلسفة لورنس لم تكن فلسفة مناسبة مع التقدم فى السن أو العجز فى القوى . وبالإضافة إلى هذا فهناك حالات معينة يصبح فيها العيش التلقائى من الأمور التى تشتت الفكر » .

وعندما كتب هكسلى هذه الأسطر كان يقترب من سن الأربعين وشعر بما يخبئه له المستقبل إذا ما اقتفى أثر لورنس ، وأدرك أن فلسفة لورنس وعبقريته كانت تصر دائما على العيش الغرزى التلقائى وتتجاهل المثل العليا والمبادىء الثابتة والعقل والعلم . فلم تكن فلسفة لورنس لتملأ الفراغ الذى كان هكسلى يحس به فى قرارة نفسه وأصبح التصوف الجنسى المادى بديلا هزيلا . فالإدمان فى هذه الحالة أو الإفراط قد يخفف من وطأة الإحباط ولكنه فى الوقت نفسه يزيد من آلام الإحباط التى يجب تسكينها ، ومن الغرائز التى يجب إشباعها من آن لآخر .

وهكذا فشلت فلسفة « التعادلية » هذه فى حل مشكلات هكسلى النفسية والروحية وفى القضاء على الإحباط فى حياته . وكان لابد له من البحث عن ذاته الأصلية ، كان لابد له من العودة إلى نقطة البداية ، إلى المكان الذى فقدها عنده ، ولم تحل فلسفة لورنس مشكلة الإزدواج ، فالازدواج يسبب الإحباط تماما كبعثرة النفس فى كل اتجاه ، ولم تستطع فلسفة لورنس كذلك أن تملأ الفراغ الذى خلفه ضياع الإيمان أو تحل مشكلة الكون والحياة . فقد كان لفلسفة لورنس الديموقراطية التى تنادى بتعدد الآلهة نتيجتين ، كما يقول هكسلى ، الأولى أونتولوجية والثانية خلقية . « والأولى هى ما يمكن أن أطلق عليه فلسفة أن لا هدف للكون . فليس هناك هدف أو فائدة ... عش ودع الآخرين يعيشون وسر فى الطريق الطبيعى الذى يمتد بدون هدف . وهذا المذهب له مثيله من الناحية الخلقية فى مذهب اللامبالاة . » ويبدأ هكسلى فى مراجعة فلسفة باسكال ويدرك أن الطريق الطبيعى الذى

يتدبدون هدف يعنى خفض مستوى المثل العليا ، واللامبالاة تذكى نار فلسفة العدم، ولهذا نجده بعد عام ١٩٣٢ ينحو نحو المطلق ثانية ويفضله بالرغم مما فى الوصول إليه من مشقة على العيش الغرزى . فالتلقائية ، كما يقول ، « ليست سر السعادة الوحيد المعصوم من الخطأ ، وليس من الضرورى أن تكون حياة الروح كارثة . » لقد كان خط سير لورنس أفقياً فى جميع الجهات على المستوى الإنسانى تتفجر قواه من ذاته فى جميع الاتجاهات وعاش حياته عرضا دون هدف . ومغزى الحياة وقيمتها لا يأتيان إلا عن طريق تجميع القوى وتركيزها تجاه هدف واحد محدد . ويمكننا فى هذه المرحلة من تلخيص فلسفة هكسلى على النحو التالى : لقد اهتم هكسلى فى بدء حياته الأدبية عندما كان يلعب دور « المتسائل الحائر» بالأجزاء ، وفى الفترة الثانية اعتنق فلسفة لورنس الحيوية التى تهتم بكل شىء دون انتقاء أو نظام ، والأخيرة تنظم الأجزاء فى وحدة هادفة وتكشف لنا عن التعدد الذى ترتبط أجزاؤه بعضها ببعض . ونرى هكسلى فى كتابه « فيما وراء خليج المكسيك » ١٩٣٤ يستعد لحياة التصوف بقوله : « إن محاولة العودة إلى الحياة البدائية غير عملية وأعتقد أنها خطأ . » فالمسئولية الفردية هى جوهر كل النظم الخلقية الموجودة . وفى كتابه « موسيقى فى الليل » ١٩٣١ يقول : « حقيقة إن معظم الآراء ما هى إلا تبرير ذهنى للاحساس ولكن هذا لا يعنى أن الشعور أو الإحساس أهم من الأفكار فى عالم الحركة . »

وقد كانت فلسفة هكسلى الحيوية فى الفترة الثانية تركيبا ، ولكن التركيب لا يعنى موضوعا مضافا إليه نقيضه . فتركيب الفترة الثانية تركيب واسع فضفاض لا يتفق مع طبيعة تفكير هكسلى وتكوينه العقلى والجسمانى ، فالتركيب شىء مختلف عن الموضوع ونقيضه ، أنه تكامل وتداخل الاثنين ، شىء آخر يسمو فوق الاثنين ،

٧ — المشكلة :

من الأمور المثيرة وجود ما يشير إليه هكسلى فى « تقابل الألحان » وما بعدها بكلمة « استفهام » أو « سؤال » فى شكل « مشكلة » يحاول أن يجدلها حلا كلما ظهرت . وقد تعرضنا لهذه المشكلة فى الجزء الأول من البحث حين كتب هكسلى يقول : « سبع كلمات تلخص لنا كل ترجمة ذاتية : إنى أرى الأفضل وأستصوبه ولكنى أتبع الأردأ . » ولا يقبل فيليب كوارلز فى « تقابل الألحان » هذا التلخيص الجائر لكل ترجمة ذاتية ونراه يكتب فى مذكراته :

« إن المشكلة بالنسبة لى هى تحويل الشك الذهنى المنعزل إلى طريقة متكاملة للعيش المتناسق . » وكانت كلمة « تحويل » تعنى تغيير الشكل أو القالب الذهنى فقط وليس تغيير المحتوى، تغييراً من الخارج لا تغييراً جذرياً كلياً للمادة ذاتها . ونقابل فى « موسيقى فى الليل » مشكلة أخرى : « المشكلة هى أن أوفق بين الحيوان وبين المفكر ، أن أجعلهما يتعاونان فى بناء رجولة كاملة . » وكانت هذه العبارة تلخيصاً لفلسفة لورنس الحيوية . وفى عام ١٩٣٢ فى مقدمته لرسائل لورنس نلاحظ تغيراً فى وجهة النظر وفى المشكلة ذاتها وأصبح هكسلى لا يؤمن بنظرية لورنس التى تقول إن الإنسان لابد وأن يعيش على المستوى الآدمى وينمى إمكانياته أفقيا على المستوى الإنسانى فقط دون أن يحاول أن يعلو بمستواه عن ميراثه الجسمى والعقلى والعاطفى والنفسى . وأصبح التكامل بهذه الطريقة تكاملا أفقيا لا يسمو بالإنسان . وفى عام ١٩٣٤ تأكد هكسلى من المنطق المضلل فى فلسفة لورنس التى تمجد الدم والغرائز : « إنى أفضل الحرية التى ينادى بها سبينوزا عن طريق المعرفة والفهم على العبودية للعواطف مهما كانت حصيلتها من المعرفة الغرزية . » وأصبحت فلسفة لورنس التى تنادى بالمزج بين الحيوان والإنسان فلسفة

خطرة . وفى « ضرير فى غزة » ١٩٣٦ تقابلنا مشاكل أخرى يتحدث عنها بطل القصة أنتونى فى مذكراته ، وهذه المشاكل تختص بناحية التطبيق العملى الذى يؤدى إلى معرفة النفس لأن هكسلى كان قد وصل إلى مستوى أعلى من مستوى لورنس الغرزى . « فالعلم بالشىء » كما يقول هكسلى ، « من الأمور السهلة ، ولكن تطويع الإرادة والعمل المتواصل من الأمور الصعبة دائما . » والمشكلة فى « ضرير فى غزة » هى كيف نحب ؟ وبعدها مشكلة أخرى « كيف نجمع بين الإيمان بأن العالم إلى حد ما وهم وتخيل وبين الاعتقاد بأنه ضرورى لتحسين التخيل والوهم ، كيف يمكنك ألا تكون عاطفيا ولا تقاسى من اللامبالاة فى وقت واحد . وأن تكون رزينا كرجل مسن ونشيطا كالشاب . » وكانت المشكلة هى الجمع بين الحيوية والرزانة ، بين العمل والتأمل ، ومحاولة التخلص من نتائج الإفراط . وفى قصته « ومر صيف بعد صيف » ١٩٣٩ يعطى لنا هكسلى صوراً لثلاثة مستويات : المستوى الروحى ، والمستوى الإنسانى ، والمستوى الغرزى الحيوانى ويطالبنا بالتسامى إلى المستوى الروحى . ولكن آراء « بروبتر » ، وهو المتكلم بلسان هكسلى ، كانت متطرفة إلى حد ما ويظهر هذا من حكمه القاسى على عدم أهمية العيش على المستوى الإنسانى ولكنه قال كلمته الأخيرة فى القضاء على فلسفة لورنس الحيوية وصور لنا عابد الملذات كشخص سجين يعيش كما يقول فى .

« قفص زمكانى تجوب فيه غرائزه وعواطفه . وإذا كان للسرمدية أو جوهر النفس أن تعيش فى هذا القفص الزمكانى لأى فرد ، فلابد لهذا الحشد الذى نسميه بالنفس من أن تنبذ عن طيب خاطر جنون حركتها ، لابد لها من أن تفسح الطريق للوعى اللازمنى ، لابد لها أن تصمت لتجعل من الممكن هبوط السكون العميق . فالله موجود فى غياب ما نسميه بآدميتنا فقط » .

وكانت المشكلة حينئذ هي التخلص من حشد الشخصيات المتنافرة ومن

الفوضى النفسية حتى يصـــل إلى إماتة الذات وفنائها . وفى « أدونيس والأبجدية » ١٩٥٦ . وكان هكسلى قد تصوف ، تراه يكتب عن مشكلة أخرى :

« المشكلة ، كالعادة ، هى كيفية التخلص من النور الشخصى . وينحصر عملنا فى تخليص أنفسنا من العادات السيئة التى تحجب عنا الضوء لا على المستوى الأخلاقى فحسب بل على المستوى الذهنى والعاطفى . » ويصبح الاكتمال لا عن طريق حياة عريضة بل عن طريق تلاشى الشخصية وفناء الذات والوصول إلى اللا ــ أنا أو الهى التى تسمو فوق النفوس الأخرى والأنا . وهذه اللا ــ أنا أقرب ما تكون إلينا ، كما يقول هكسلى . أقرب إلينا من أيدينا ومن أرجلنا وهى أسمى ما يصبوا إليه إنسان ، وهى أسمى غاية لوجود الفرد .

وكان من الضرورى أن يتخلص هكسلى من رذائله قبل أن يبدأ رحلته الروحية ، وأهم ما كان يشغل باله كما يقول لنا فى كتابه « أدونيس والأبجدية » هو « معرفة من الذى يقوم بالتمثيل فى كل أدواره المختلفة » . وأصبح الاستبطان عنده وسيلة لغاية لا غاية فى حد ذاته ، فالاستبطان وتأمل الذات والانشغال بها قد يكونان سبباً فى عرقلة المتصوف . « فالذين يولدون ولهم ميل إلى تأمل ما حولهم لابد لهم أن يتعلموا كيفية تأمل ذواتهم إذا أرادوا أن يعلموا شيئا عن الروح الإنسانية » هذا هو ما يقترحه هكسلى لمن هم انبساطيو النزعة أما الانطوائى بطبعه ، فيجب عليه أن يروض نفسه على إماتة ميوله الفطرية ناحية الاستبطان لذاته ، أو الفكر والتخيل وتحليل النفس كغايات فى حد ذاتها بدلا من اعتبارها وسائل تقوده إلى السمو فوق الخيال والتفكير الذهنى حتى يصل إلى المستوى اللازمنى للفكر الخالص البديهى . » فمعرفة النفس لا تكفى وحدها بل يجب أن تكون معرفة النفس طريقاً يقودنا إلى معرفة الهى أو اللا ــ أنا . فمعرفة النفس الحقيقية هى بسط

الذات دون جهد لتقبل الاستنارة وهى فى الوقت ذاته ادراك مباشر لفناء الذات التى تقوم بهذا البسط التلقائى . « وإذا ظل معظمنا جاهلا بذاته » كما يقول هكسلى ، « فذلك لأن معرفة النفس من الأمور الشاقة المؤلمة ، ونحن نفضل ملذات الوهم : » فالجهل بالذات يؤدى إلى تصرفات غير حميدة ، وبدون معرفة الذات لن يكون هناك تواضع حقيقى وتبعاً لذلك لن يكون هناك فناء فعال للذات ولا معرفة وطيدة بالذات العليا التى هى أصل الذات ، وكثيراً ما تحجبها الأنا . ومعرفة الذات عند هكسلى ليست ادراكا واعيا للانا ولكنها معرفة الهى أو اللا — أنا والتى يطلق عليها هكسلى الروح القدس أو أتمان — براهمان أو النور الساطع أو « الهكذا » وهى نوع من الوعى الجمعى وأنتباه عقلى كامل .

« وعن ماذا يكشف هذا الوعى الكامل لمن يمارسونه ؟ ويجيب هكسلى فى نفس الكتاب : « يكشف أول ما يكشف عن قصور ذلك الشىء الذى نطلق عليه جميعا كلمة « أنا » ، وعبث ما تدعيه .. فالوعى الكامل يبدأ ، باختصار ، بادراكى لجهلى وعجزى » .

وهكذا تبدأ المشكلة بحالة الإنسان المعذب وضعفه فهو يرى الأفضل ويستصوبه ولكنه يتبع الأردأ . ويحاول هكسلى أن يصل إلى حل لهذه المشكلة عن طريق الإفراط بحكمة ، وتفشل فلسفة لورنس ثم تتحول المشكلة إلى مشكلة معرفة الذات عن طريق الانطواء والاستبطان ويقوده هذا أخيراً إلى إنكار الذات ومحاولة الوصول إلى الهى ومن هذا المستوى إلى النور الساطع أو السكون المعبر . وقد تحقق هذا التكامل الذاتى عن طريق إرادة سامية أو ما يطلق عليه هكسلى « الإرادة المنظمة الآمرة » وهى نوع من القدرة على الفهم والإدراك المباشر ولا تمت للمعرفة العقلية بصلة ، والإرادة المنظمة الآمرة لها القدرة على إسكات الأنا الواعية وعلى تكييف الانعكاسات المكيفة أو إعادة تكييفها .

٨ — التحول العظيم عن طريق الرمز :

تعتبر تجربة الهداية أو مرحلة التنور ، شأنها فى ذلك شأن أى تجربة نفسية أو عاطفية يمر بها الإنسان ، من أصعب الأمور عندما نحاول أن نصفها فى كلمات ، فالكلمات قاصرة دائما عن التعبير عن أى تجربة صوفية كانت أم نفسيـــة . فالتجربة الصوفية فى أساسها نوع من الكشف اللحظى الفجائى وعملية تفاعل سريعة - بصيره وإدراك لا يمكن إيصالها إلى الغير - وليس من السهل التعبير عنها فى صور لفظية دقيقة ، ومن العسير نقل مضمونها للآخرين لأنها حالات من الشعور وليست بحالات ذهنية . ولهذه الحالات أو الومضات أو الإلهامات دلالات قيمة وسلطان ضخم على أصحابها . وهذه الحالات سريعة الزوال ، ولكن بالرغم من هذا فأثرها ثابت فى ذاكرة أصحابها . وهذه التجارب النفسية لا يمكن ، المشاركة فيها ويجب على كل فرد أن يمارسها بنفسه . ويلجأ المتصوف إلى الإشارة أحياناً وإلى الرمز أحياناً أخرى ولهذا كان الأدب الصوفى أدباً مغلقاً إلى حد ما ، أدباً غير مفهوم الدلالات وكما يقول هكسلى :

« هناك أنواع عديدة من التجارب الذاتية العميقة التى لا يمكن تحليلها . إحساس عميق ، مثلا ، ولنقل أنه شعور طاغ مفاجىء يعقبه استنارة داخلية أو إيمان .

والمشكلة إذن هى : كيف نعبر عن مثل هذه التجارب ؟

وهناك طريقتان : الأولى ، طريقة السرد المباشر والوصف ، والثانية ، طريقة الإيحاء الرمزى ، وهنا لا نصف التجربة أو نذكرها بل نشير إليها ضمنياً . وهكذا يلجأ الأديب إلى سلسلة من الأقوال التى تتمركز معانيها حول نقطة خارج الموضوع ذاته وتصبح هذه النقطة هى التجربة المراد وصفها » .

ولا يعتبر هكسلى من الكتاب الرمزيين الذين يسرفون فى استعمال رموزهم ، والرموز القليلة العدد التي يلجأ إليها لا تثير فينا احساسات أو

عواطف معينة ولكنها تعنى بتوصيل فكرة مجردة أو تضفى على تجاربه المتعددة المتشعبة إطارا ينظمها ويجمع اشتاتها . وقد تحددت رموزه بضعف بصره كما بينا فى الجزء الأول من البحث منذ البداية . وغالباً ما يطرح هكسلى جانباً الطريقة المباشرة فى وصف تجاربه الذاتيـــة وإحساساته العميقة ويلجأ إلى التقابل أو القياس أو الإيحاء الرمزى . ونجد رموز الأزل واللانهائى والخلاص والاستنارة والبعث فى نسيج أعماله بشكل مستتر منذ البداية . ورموزه إما رموز هندسية أو من الحيوانات والطيور أو من الظواهر الطبيعية . والرموز الهندسية هى الدائرة وعماسها والعجلة واللولب والمخروط ومن الحيوانات الفأرة العميـاء ومن الحشرات زيزان الحصاد ومن الرموز الطبيعية الجبال والصحراء والنهر والبحر ، وأعتقد أن العبارة التالية من « تأملات » برونو المتصوف فى قصته « لابد للزمن من وقفة » ١٩٤٤ تشرح لنا رمزيا التحول فى حياة هكسلى فى قصيدته « زيزان الحصاد » أو الفراشة وكتبها عام ١٩٣١ : « وبالطبع ، أخذ برونو يفكر ، أن البحث اختيارى .

فنحن نجد أنفسنا مضطرين لأن نعيش — نعيش كما نحن ، ونسير من أسوأ إلى أسوأ ، إلى ما لا نهاية حتى نرغب فى الصعود مرة ثانية كشىء يختلف عما كنا عليه ؛ سيحدث هذا حتما ، إلا إذا لم نسمح لأنفسنا بأن نرتقى » .

وتعتبر قصيدته « زيزان الحصاد » بدء تحوله نحو التصوف وفيها محاولة للتعبير عما يطلق عليه وليم جيمس فى كتابه « صنوف التجربة الدينية » الميلاد الثانى وأتبعها هكسلى بكتابه «عالم جديد شجاع» ١٩٣٢ ثم مقدمته لرسائل لورنس ثم ما كتبه عن التصوف فى « فيما وراء خليج المكسيك » ١٩٣٤ « وضرير فى غزة » ١٩٣٦ . وبعد عام ١٩٣٦ انسلخ المتصوف من الساخر وظهر هكسلى الحقيقى وطغت شخصية المتصوف على كل الشخوص

الأخرى وألقى هكسلى بأفنعته وظهر وجهه الحقيقى . فلقد قرر هكسلى أن يترك « عالم الظلام » الذى كان لورنس ينادى به ويعيش فى عالم النور .

(و « عالم النور » عنوان مسرحية لهكسلى كتبها فى عام ١٩٣١) . واستطاع هكسلى أن يخرج نفسه من توقعتها ونجح فى الإفلات من يرقته التى ظل حبيسا فيها لمدة طويلة . ونقرأ فى مذكرة أنتونى فى « ضرير فى غزة » وهو يشير إلى هذا الخلاص : « لقد أصبح الآن واقفا خارج جحره — لقد طرد منه كما لو كانت العرس تطارده » .

ومن تاريخ حياة زيزان الحصاد ودورتها نعلم أنها تضع بيضها على فروع الأشجار وتخرج الديدان الصغيره بعد الفقس وتسقط على الأرض وتدفن نفسها فى التربة وتتغذى من جذور الأشجار والنباتات ثم تتحول إلى « عذراء » فى يرقتها .

وتبقى « العذراء » هكذا فى سبات عميق أثناء فترة الاستكنان الشتوى لمدة ١٧ عاما تخرج بعدها من اليرقة كفراشة كاملة . وترمز الفراشة بأطوارها المختلفة إلى التحول فى حياة هكسلى من مرحلة البويضة إلى مرحلة الفقس ، وترمز أيضاً إلى وجه التشابه بين موتها الظاهر وعيشها فى عالم مظلم تحت سطح الأرض وعزلتها وضعف بصر هكسلى وانطوائيته ، وأخيراً إلى الشبه بين خروجها من وادى الموت إلى النور والحياة بعد بعثها أو « ميلادها الثانى » وإدراك هكسلى لأهمية التسامى والعيش فوق المستوى الغرزى . ومن الغريب أن هكسلى بدأ حياته الأدبية فى عام ١٩١٦ واستمر يلعب دور المتسائل الحائر حتى عام ١٩٣١ عندما كتب « زيزان الحصاد » وهى الفترة التى تبقى فيها زيزان الحصاد فى حالة موت ظاهرى . وتبدأ القصيدة :

إنى أتنفس واتلمس فى الظلام .

ونتعرف على هكسلى من أول سطر فيها ، فالعذراء تتنفس وتؤكد الحياة الكامنة فيها .

وهناك صمت تحت الأشجار .

صمت الأصوات المستمرة الحى .

إنى أسمعها تغنى ، وأنا الذى كنت فى ليل مظلم ،

مملوء بالسحب والأغصان أظن اننى مررت ،

خلال يأس الروح لظلم ،

محروما من البصر الداخلى والخارجى .

وتنتهى القصيدة بنوع من الاستنارة العقلية أمام معجزة الوجود هذه ويدرك أن من ظل بعيداً عن النور لابد أنه سيرقى إليه وحين يصعد الإنسان إلى النور فإنه يكتسب قدرة ذاتية جديدة وحينئذ يتحقق العجب الحقيقى أمام معجزة الوجود وتتبدد الأوهام وتصفو العقيدة .

نمضى دون هدف : ولكنى سمعت صوتك ،

اللاعقل الإلهى ! تعزف على القيثار بين الأغصان ،

وما عدت أحزن ، لأن الحكمة لا تحزن ،

وقد علمتنى الحكمة ؛ إنى مبتهج .

وفى عام ١٩٣٦ استغل هكسلى فى « ضرير فى غزة » الرمزية فى الفراشة مرة أخرى فهاجم لورنس لأنه كان يفضل استغلال هذه الحيوية التى تزحف وتنساب تحت جلده فى العيش على المستوى الإنسانى فقط ولم يسمح لها بأن تنقله إلى مستوى أعلى . وبدأ هكسلى كذلك يدرك أن العقل وحده غير كاف ولهذا يكتب بطل القصة فى يومياته :

« الفكر والسعى وراء المعرفة — لقد كانت هذه هى الأهداف التى استغل من أجلها المعلومات التى شاهدها تزحف تحت المجهر ، والتى كانت تصيح بتحد فى الظلام . الفكر كغاية ، والمعرفة كغاية . والآن وفجأة ، أصبح من الجلى أنها وسائل فقط ، مادة خام بكل تأكيد كالحياة نفسها » .

ثم نقرأ فى جزء آخر من اليوميات :

« لقد ذهبت مع « ميلر » لمشاهدة فيلم علمى . . . كان الفيلم عن الذبابة . البويضات ، والديدان على قطعة من اللحم العفن . بيضاء كالثلج ، كقطيع من الأغنام فى مرعى . تبعد عن الضوء . وبعد خمسة أيام من النمو تنزل إلى الأرض، تحفر، وتصنع شرنقة . وبعد اثنى عشر يوما أخرى ، تظهر الذبابة. عملية بعث غريبة الشكل وتنتفخ اليرقة حتى ينشق جدارها وتنسلخ الذبابة خارجة . تطير إلى أعلى ، نحو النور » .

ويشير هكسلى رمزياً إلى أن طريق الخلاص هو البعث أو الصعود إلى أعلى نحو النور وليست الرمزية هنا بجديدة ، فقد تحدث عنها « أميرسون » فى إحدى مقالاته : « إن التقدم الروحى لا يحدث تدريجيا فى خط مستقيم ولكن عن طريق الصعود من مرتبة إلى أخرى ، ويمكن تمثيلة بعملية تحول — من البويضة إلى الدودة ومن الدودة إلى الفراشة » . (مقالات الجزء ٢ ص ٢٢٥) .

ولا يسمح المجال لدراسة كل رموزه فى هذا البحث ويكفى أن نقول أن السمكة تظهر فى قصائده وقصصه بشكل واضح لأنها ، فى عالمها ، تشبه هكسلى إلى حد ما ، وتظهر كذلك كلمة « برمائى » فى كتبه لما توحى به من قدرة الإنسان على العيش فى عالم الروح وعالم الجسد . ويرمز أبو رياح Weather-cock إلى فلسفة لورنس وترمز البوصلة إلى فلسفة المتصوف . فعند ما حاول هكسلى اعتناق فلسفة لورنس وجد أنه كان يبعثر قواه فى كل اتجاه كأبى رياح دون هدف محدد وأصبح تحت رحمة كل هبة ريح تعصف به كيف تشاء ولهذا يشبه نفسه فى الفترة الأخيرة بالبوصلة .

ويعود هكسلى فى الفترة الأخيرة من حياته إلى « باسكال » ويدرس فلسفته مرة أخرى فى ضوء تجاربه الجديدة وأصبح مستعداً ، وكان قد بلغ الأربعين من عمره ، أن يكون مرشداً ومتصوفاً وأصبحت نماذجه فى كتابه

« الفلسفة الدائمة » المسيح عليه السلام والقديس جون ووليام لاو وبوذا ومجموعة من المتصوفين المسلمين والمسيحيين .

ويعرف وليم جيمس فى كتابه « صنوف التجربة الدينية » هذا التحول بوجه عام فى العبارة التالية : « التحول ، أو التجدد ، أو المولد الجديد ، أو أن تحظى بفضل الله ، أو أن تمارس الدين ، أو أن تكسب الثقة : ما هى إلا عبارات كثيرة تعنى وتشير إلى العملية — المفاجئة أو التدريجية — التى بواسطتها تصبح النفس التى كانت منقسمة وعلى علم بخطئها وتعيسة تحس بالنقص ، موحدة وعلى علم بصوابها وفى منزلة سامية وسعيدة ، ويصبح لديها سيطرة على الحقائق الدينية . » ولم يكن هكسلى من هذا الصنف من الناس الذى يمكنه أن يمر بمرحلة تغير فجائى لأن التحول عنـــد الانطوائى يتم تدريجيا ويسميه وليم جيمس Lysis ، بينما يتم التحول عند الانبساطى فجأة ويسميه وليم جيمس Crisis ومن أهم ملامح التحول أولا ، توحد الشخصية ، وثانيا حدوث رد فعل يأخذ شكل استسلام النفس لمثل أعلى ويتبعه تحسن وتطور خلقى وثالثا ، ظهور نوع من التقبل التلقائى لما حوله وإعجاب بالكون وما فيه وهذا ما يعبر عنه هكسلى بقوله « إحساس بجمال الدنيا بالرغم من الموت والعذاب » وما يهمنا فى هذا المجال هو ذلك الإحساس بأن كل شىء فى العالم جديد لما له من أثره فى نظرة الأديب لما حوله. ويؤكد لنا وليم جيمس أن التحول من الممكن أن يحدث حتى ولو بقيت الظروف الخارجيـة المحيطة بالشخص كما هى . وكما يقول هكسلى إن التحول أو الاستنارة عملية فردية لا تشترك فيها الجماعات ، والتوبة عملية ضرورية وجـزء هام من التغيير الجذرى فى الشخصية وبدونها لا يمكن للانسان أن يصل إلى أول الطريق إلى الخلاص . وما يطلق عليه وليم جيمس الاستسلام ، ويعتبره أول خطوة حيوية فى سبيل تحقيق تكامل الشخصية وسعادتها ، نجده فى أعمال هكسلى فى الفترة الأخيرة . وهذا النوع من الاستسلام يختلف اختلافا تاما عن استسلام

المتسائل الحائر لعقله وتفكيره وسعة اطلاعه أو استسلام عابد الملذات لنزوات جسده وسيطرة الغريزة عليه واستلامه لذواته المختلفة . ففى الاستسلام الجديد نوع من التخلى عن التفكير والعقل فى سبيل الحكمة ، نوع من الالقاء بالذات التى تفكر فى البحر ، فى المحيط الذى يرمز إلى الله . ونقرأ له فى « الفلسفة الدائمة » : « لا يمكن للسرمدية أن تتدخل إلا إذا قام الفرد عن طيب خاطر بعملية انكار لذاته وهكذا يخلف فراغا يمكن للسرمدية أن تسرى فيه . » وهكذا وبعد الفوضى المتناهية فى فلسفة الاضداد وفشله فى التوفيق بين ذواته المتنافرة استطاع أن يهتدى إلى أول الطريق وينمى ويقوى إرادته . ولكن تنظيم الإرادة وتدريبها ، كما يقول هكسلى ، لا بد أن يصاحبه تنظيم وتدريب للوعى ذاته . ولتدريب الوعى هذا كان لزاما عليه أن يفرق بين الأنا والهى ، بين الذات العليا والذات ، بين الإرادة السطحية والإرادة العليا . ولكى يحصل على « عذرية العقل » Virginity of Mind ، أو براءة الطفولة يعترف هكسلى أنه « كان لا بد من تحول ، مفاجىء أو تدريجى ، لا فى القلب فقط ، ولكن فى الحواس والعقل المدرك وهذا التحول هو ما أطلق عليه الإغريق كلمة Metanoia ، ذلك التغيير الكلى الجوهرى للعقل . »

٩ — التحول فى قصصه :

من الصعب فى أى عمل أدبى وصف عملية التحول ذاتها ، ولهذا لا نجد فى قصصه بعد «ضرير فى غزة» وصفا مباشرا للتجربة ذاتها ولكننا نجد رد فعلها فى تصرفات الشخوص التى مرت بهذا التحول الذى أدى إلى خلاص نفوسها . والطريقة المناسبة فى هذه الدراسة هى مقارنة المتصوف أو المستنير وتتميز شخصيته بالصفاء واليقظة والهدوء ووحدة الشخصية والهدف والمحبة والتواضع بالشخص المزدوج الشخصية الحائر الذى يقاسى من الاحباط

والقلق والحيرة والانقسام والتعالى . وليس من المصادفة أن قصتيه « ضرير فى غزة » ١٩٣٦ ، « لا بد للزمن من وقفة » ١٩٤٤ من القصص التى فيها استرجاع لتجارب الماضى وتأملها فى ضوء التجارب الحالية ، ويقدم الينا هكسلى فى هذه القصص (« ضرير فى غزة » « ولا بد الزمن من وقفة » و « ومر صيف بعد صيف ») شخصية جديدة — شخصية الحكيم ، فنرى ميلر فى « ضرير فى غزة » وبروبتر فى « ومر صيف بعد صيف » وأخيرا برونو فى « لا بد للزمن من وقفة » وهذه الشخوص تلعب أدوارا هامة فى هذه القصص الثلاث ولو أن كلا منها يلعب دورا غير رئيسى ، والسبب ، كما يقول هكسلى ، هو أن « تاريخ حياة القديسين يعتبر عند المثقفين وذوى العقول النشطة نوعا لا يستحب من الأدب . » أما الراوى فى قصته السينمائية « الغوريلا والجوهر » فهو مجرد صوت يسمع ولا يرى ويمثل صوت هكسلى أو الحكيم كما فى قصصه الأخرى . ونلاحظ أيضا أن المريدين أو طالبى الخلاص أمثال أنتونى فى « ضرير فى غزة » وسباستيان فى « لا بد للزمن من وقفة » يدونون ما يعن لهم من أفكار فى مذكرات تعتبر مادتها تأملات فى تجاربهم الماضية فى ضوء ما حصلوه فى حاضرهم . ولا تهتم قصص هكسلى بسرد تفاصيل التحول ولكنها تعنى برصد نتائجه فى شخصية البطل أو فى علاقاته بالعالم من حوله وبالآخرين أو فى التغير فى ادراكه ووعيه أو فى انفعالاته وردود أفعاله .

فى « ضرير فى غزة » يعطينا هكسلى تسجيلا لتصرفات أنتونى قبل وبعد تصوفه فقد مر البطل بتجربة صوفية غيرت مجرى حياته كلية . فهناك فرق واضح بين ادراكه لوحدة الكون وهو فى سن العشرين وإدراكه لهذه الوحدة وهو فى سن الثالثة والأربعين . والأجزاء التى نجدها من يومياته فى القصة لا تصف هذه التجربة بالتفصيل ولكنها تعتبر نهاية فترة الإحباط التى كان أبطالها « دينيس » و « جمبريل » و « كالامى » و « فيليب كوارلز » .

ويبلغ هكسلى فى شخصية « أنتونى » نهاية الشوط بعد مرحلة طويلة من التكييف ثم اعادة التكييف .

وفى « لا بد للزمن من وقفة » تعنى الخاتمة التى تتضمن تأملات سباستيان بنتائج التحول والخلاص ولا تصف التجربة ذاتها ، وأسلوبها يختلف اختلافا كليا عن أسلوب صاحبها سباستيان وهو فى سن العشرين ، وعندما ترك هكسلى هذه التأملات إلى نهاية القصة أعطانا الإحساس بأن بطل قصته قد طلق الماضى بما فيه من احباط وفشل وهزيمة وقلق وضجر بالحياة . ونلاحظ أن تأملات « أنتونى » فى « ضرير فى غزة » تتخلل القصة من أول فصل إلى آخر فصل فيها وهذا يدلنا على أن « أنتونى » كان فى دور التحول وفى طريقه إلى الاستنارة . وتأملات سباستيان فى مجموعها أقل من تأملات أنتونى فى « ضرير فى غزة » أو مما دونه فيليب فى مذكراته فى « تقابل الألحان » لأن هكسلى كان يريد من بطله الجديد أن يقارن بين ماضيه البعيد وحالته الراهنة وكان قد أدرك عبث الندم والتمادى فيه . وهكذا يصف لنا هكسلى طريق سعيه سواء فى كتب رحلاته أو فى قصصه وطوافه أولا « بدون بوصلة » كالمتسائل الحائر إلى بعثرة قواه فى كل اتجاه فى الفترة الثانية إلى طوافه « ببوصلة » — ومن الازدواج إلى التعدد إلى الوحدة — ومن الاهتمام بالكلمات والأفكار كغاية إلى الاهتمام بالحياة إلى مرحلة الصمت وطهر القلب — من عالم بدون طريق إلى مئات الطرق المضللة إلى عالم بطريق واحد — وأخيرا من « أنا أفكر فانا موجود » إلى أنا أعيش فأنا موجود » إلى مرحلة الاعتراف بأن الله يفكر فيه فهو موجود .

وإذا حاولنا أن نبحث فى أعمال هكسلى فى الفترة الأخيرة عن دلائل تشير بوجه قاطع إلى هذا التحول فى حياته فلن نجد إلا النتائج الإيجابية لهذه الاستنارة لأنه كان يعلم أن عملية « اجترار التجارب الماضية » والتحسر عليها أو حتى تذكرها عملية خطره . « فوخز الضمير كما يقول معظم المهتمين بعلم

الأخلاق يعتبر من العواطف السيئة . فاذا كنت قد أخطأت ، فتب ، وحاول أن تصلح ما أفسدت ، ثم وجه نفسك إلى طريق التصرف بطريقة أحسن فى المرة القادمة ، ولا تتحسر أو تفكر فيما فعلته من أخطاء فى الماضى ، فالتمرغ فى الوحل ليس أحسن وسيلة للنظافة . » وليس هناك ما يمنع من تذكر ما فات ولكن إذا كان اجترار هذه التجارب سيشغل المتصوف عن الحاضر فهذا معناه ، كما يقول هكسلى ، الفردوس المفقود . وتذكر أيام خلت قد يكون أدبا عظيما ولكنه من الناحية الدينية لا طائل تحته ، ففى محاولة استعادة الزمن الضائع فقدان للفردوس ، وفى فقدان الزمن استرداد للفردوس . ويتضح لنا الآن الغرض من عنوان قصته « لا بد للزمن من وقفة » وتحمل الترجمة الفرنسية لهذه القصة عنوانا مشابها وهو « استرداد الأبدية » .

١٠ — الفلسفة الدائمة The Perennial Philosophy

يبدأ هكسلى ، بعد مرحله الاستنارة فى الارتفاع بمستوى مثله العليا وكان قد أدرك أن هناك طريقة واحدة فعالة للتغيير الجذرى المستمر فى الشخصية : « هناك طريقة واحدة فعالة لتغيير الشخصية تغييراً جذرياً دائماً — وهى طريقة المتصوفين » . وقد ضمن هذه الفلسفة فى كتابه « الفلسفة الدائمة » ١٩٤٤ بعد أن اعتكف عامين فى معبد تابع لجمعية الفيدا فى كاليفورنيا . و « الفلسفة الدائمة » تركيب فلسفى يؤدى إلى غايات إيجابية لمن يمارسونه وتعالج هذه الفلسفة التجارب الإنسانية ، ما كان منها نفسيا أو روحياً أو خلقيا ، وفكرتها المحورية فكرة صوفية روحية . وتتضمن الفلسفة نظاما ميتافيزيقيا يعترف بوجود حقيقة إلهية ضرورية لوجود العالم المتعدد الذى يتكون من أشياء وأرواح وعقول — وهذا هو الهدف الرئيسى فيها . والفلسفة الدائمة إلى جانب ذلك كله ، فلسفة تعترف بأن فى روح الإنسان سمة من سمات الحقيقة الإلهية ، أو كما يقول جيرالد هيرد ، أحد أصدقاء هكسلى وعضو عامل فى جمعية الفيدا ، نوع من الحدس ببنوة الإنسان للحياة التى تسند العالم

كله وبالإخاء مع كل عيال الله » . والفلسفة اخلاقيه لأنها تضع غاية الإنسان فى معرفة قانون الوجود الشامل فى الحلول والتسامى ويلخصها لنا جيرالد هيرد فى هذه الكلمات : « ولاء لا حد له تجاه هذه الحقيقة السامية العظيمة وإنكار شديد لأى شىء قد يقف فى طريق بلوغ هذا الولاء . وثانيا ، العزم على اعتبار كل المخلوقات وكأنها عيال الله » .

ويعتبر هكسلى فلسفته هذه القاسم المشترك الأعظم فى كل العبادات . وقد أشار إليها فى كتابه « وسائل وغايات » ١٩٢٧ ويعتبرها فلسفة عملية يجب على من يريد ممارستها أن يكون صافى القلب محباً للناس . وتعاليم الفلسفة يمكن حصرها فى هذا الشعار «انت هذا» ويمكن إدراك هذا الشعور والوصول إلى هذه التجربة الروحية بطرق ثلاث : بالعمل داخل نفوسنا ، أو بالعمل من الخارج أو بالعمـــل من الداخل والخارج فى وقت واحد . والطريقة الأولى نوع من الجوانيـــة وسائلها الاستبطان وانكار الذات والرهبنة والطريقة الثانية هى فلسفة الحلول أو نوع من « البرانية » والطريقة الثالثة تجمع بين الاثنين وتؤمن بتسامى وحلول الروح الأزلية . ويفضل هكسلى الطريقة الثالثة لأنه يعتقد أن فلسفة الحلول فلسفة غير متكاملة والطريقة الأولى قد تؤدى إلى عزل المتصوف عن مجتمعه وتعدده إلى السعى وراء خلاص نفسه وحدها دون إرشاد الآخرين . والإيمان فى تركيب هكسلى ايمان تجريبى لأن الغاية هنا ليست المطلق الذى تعنى به الميتافيزيقا ولـكنها « شىء كامل يحبه الإنسان ويعبـده ويجله أكثر من الإله الإنسانى أو أى تجسيد له . » وتجمع الطريقة كذلك بين العمل والتأمل فى آن واحد وقانون الوجود الشامل لا يمكن الوصول اليه عن طريق العقل ولـكن طريق الممارسة والتجربة بالاستعانة بتمارين روحية خاصة . ويقول هكسلى إن قانون الوجود الشامل هو سر وجود الحقائق وإدراكه يعتبر قفزة من جانب العقل الواعى بعيدا عن الـكائنات المحدودة ومنفعتها إلى إدراك مباشر لـكينونة الأشياء .

فالعالم فى تغير مستمر وفى تتابع لا نهائى ولكن أساسه ، تبعا لهذه الفلسفة ، هو الآنية اللازمانية للروح القدس . ويصعب ترجمة هذه التجربة المباشرة إلى الفاظ يتقبلها المنطق والعقل . ويقول هكسلى : « فلا بد اذن أن يغض المتصوف النظر عن مشاكل اللغة والفلسفة ، أو على الأقل ينحيها إلى مرتبة ثانوية ، ويركز اهتمامه على الطرق العملية التى تقوده من المعرفة إلى الفهم . »

وعندما يستعمل المتصوف كلمة « الفهم » ، كما يقول هكسلى ، « فهو لا يعنى أنه يعرف الله ، إذا كانت كلمة « يعرف » تعنى « تركيب تجربة جديدة فوق نظام فكرى مستمد من تجاربنا الماضية » ؛ ولكن الفهم عنده يعنى الحدس ، الإدراك المباشر ، استنارة داخلية تتلاشى فيها العلاقة بين الموضوع والذات التى تتأمله . فجوهر التجربة الصوفية هو الوحدة مع تيار الحياة المتغير ووحدة مع الكل الذى يجمع كل كائنات الدنيا . والفهم عند هكسلى يمكن تشبيهه بحاسة سادسة أو ادراك حسى فائق وقدرة على تقبل المعطيات المباشرة للشعور أو ملكة روحية تفوق العقل والمعرفة وتهتم بالمعطيات على كل مستويات التجربة . والفهم ادراك مفاجىء أولى للمادة الخام وهو بعيد عن الكلمات . ولهذا فليس الفهم إدراكا وبالتالى لا يمكن توصيله .

وليس هناك داع لتعليم وتثقيف وتمرين هذا الفهم ولكن من الضرورى تكييف الملكات الأخرى التى تعطل الفهم . والفهم هو الملكة التى تمكننا من إدراك المطلق من خلال المحدود والنظام الكونى من خلال النظام الطبيعى والأزل من خلال الزمن والنيرفانا من خلال السامسارا أو المتغير . وإذا لاح الفهم فستبدو الحياة جميلة وسيرى الإنسان الأزل يتوهج خلال الزمن . « ومع الفهم يحدث زواج سعيد بين الغايات والوسائل » كما يقول ، « وتظهر الحكمة التى هى تحقيق اللازمنى عن طريق المتغير ، وتظهر المحبة التى هى تطبيق عملى للحكمة . » ويؤمن هكسلى بأهمية النظرة الصوفية

وفلسفتها ويقول: « سوف تفنى البشرية إذا لم يكن هناك رؤى . فالمتصوفون قنوات يجرى من خلالها القليل من المعرفة الصحيحة بالحقيقة إلى عالمنا الذى يزخر بالجهل والوهم . فالعالم الذى يخلو من التصوف عالم ضرير مجنون » .

وكان اهتمام هكسلى فى بدء حياته الأدبية بالتصوف اهتماما أكاديميا عقلياً ، وكانت الحياة والحقيقة والكون أشياء غريبة للتساؤل الحائر ، وبعد « ضرير فى غزة » وحتى نهاية حياته الأدبية تبدأ كتبه فى معالجة التصوف بطريقة أخرى ، وقد أعطاه التصوف القدرة على الإجابة عن أسئلة كثيرة وإدرك بعد تصوفه أن العالم المتعدد عالم واحد وأن كل أجزاء العالم ترتبط بعلاقات مباشرة أو غير مباشرة بالأجزاء الأخرى مهما كانت بعيدة فى الزمان والمكان . فالوجود كثرة لا متناهية ولكل جزء وجوده ووظيفته .

١١ — أبواب الحس الادراكى : The Doors of Perception ١٩٥٤

لقد كان هكسلى يحس من آن لآخر بوجود باب يستطيع منه أن يلج إلى عالم روحى غريب ، وقد دفعه هذا الإحساس مراراً إلى القيام بمغامرات عديدة للاستطلاع والاستكشاف. وفتح أبواباً عديدة ونفذ منها إلى داخل ما أفضت إليه ليجد نفسه فى مكان قفر :

« فى بيت أبى منازل كثيرة . ولقد أعطت الطبيعة للانسان مفاتيح لعدد كبير من هذه المنازل الميتافيزيقية . ويقترح علينا عابد الملذات أن يستعمل الإنسان كل المفاتيح بدلا من أن يلقى بها كلها ويستبقى منها واحداً فقط » .

وأمضى هكسلى وقتاً طويلا فى البحث عن هذا المفتاح ، وعندما عثر عليه وجد أن المنزل الذى يجب عليه أن يدخله ، كما يقول ، هو « صومعة معرفة النفس » .

ومنذ ذهابه إلى كاليفورنيا فى عام ١٩٣٧ واستعادته لقوة الأبصار بشكل ملحوظ وانضمامه إلى جمعية الفيدا الصوفية وهو يكتب عن التصوف بعد أن درس فلسفة الفيدا مع أحد المتصوفين الهنود ولم يمنعه من التصوف فى الفترة الأولى سوى الاعتداد بذكائه وكان عليه لكى يدخل إلى قصر الايمان أن يلقى بأشياء كثيرة عند مدخله وعلى الأخص عقله الواعى ومنطقه وطريقة تفكيره و « شطارته » . ويعلق على تجربته بعد تعاطى عقار المسكالين فى كتابه « أبواب الحس الادراكى » بقوله : « وبالنسبة لأى إنسان يهتم بالانسانية وبقدراتنا الكامنة العظيمة ، فإن أى تجربة ، حتى ولو كانت ساذجة ، لها فائدتها إذا كانت ستشير إلى مايجب علينا ألا نفعله » ويسجل فى هذا الكتاب الخطوات اللازمة للدخول فى حالة من الوعى الصوفى المفتعل عن طريق عقار المسكالين ثم حالة التصوف وما لها من مغزى ثم انتهاء التجربة وعودته إلى المتعدد . ففى « أبواب الحس الادراكى » فتح هكسلى الباب على مصراعيه عنوة ودخل وتعلم وخرج شخصاً مختلفاً تماماً .

« فالإنسان الذى يعود من هذا الباب فى الجدار سيكون إنساناً مختلفاً عن الإنسان الذى دخل منه . سيكون حكيما ولكن ثقته العمياء بنفسه ستقل ، سيكون أسعد مما كان ولكنه سيكون أقل رضى عن نفسه ، سيكون متواضعاً وسيعترف بجهله ولكنه سيكون مستعداً لفهم العلاقة بين الكلمات والأشياء ، وبين الفكر المنظم وبين هذا السر الذى لا قرار له والذى سيحاول دائماً ، وعبثاً ، أن يفهمه » .

وفى التجربة الصوفية يفهم الفرد ماهو المقصود بوحدة الكون والشخصية ويجلب له هذا الإحساس سعادة لا مثيل لها ويبدأ فى التخلص من العراك الداخلى فى شخصيته . ويقول هكسلى إن التأمل أو التجربة الصوفية تمكننا

من « معرفة الثلاثين أو الأربعين جلداً التى ترقد ذاتنا تحتها ونكتشف أنها «الهى». فهناك إنسان حقيقى ، إن لم يكن قديساً ، فى المادة الخام التى تبدأ بها حياتنا ، ولكننا نعمل على الإبقاء على هذه الأقنعة الخيالية ونهمل ما هو حقيقى ، ولكن هذه التجربة تساعد على التخلص من الازدواج والتعدد .

ولا يقول هكسلى أن تجربة «المسكالين» تعادل التجربة الصوفية الأصيلة أو الاستنارة الفعليه ولكنها ، فى حد ذاتها ، تجربة مفيدة وعلى الأخص بالنسبة للعقلانيين لأنها أكدت له قيما روحية طالما تاقت نفسه إليها وساعدته على التخلص أثنائها ، كما يقول ، من الأنا المجنونة التى كانت تصر على توجيه أموره .

١٢ — الدين والتصوف عند هكسلى

يعتبر الدين والتصوف عند هكسلى لفظين مترادفين وينطوى هذا التصوف على تجارب شخصية صوفية كما أن الحياة الدينية الصحيحة فى نظره هى حياة المتصوف. والمتصوف أوصاف منها التقشف الجسدى والذهنى والزهد والصفاء والطاعة والتواضع . ويعرف هكسلى التصوف من خلال عرضه لخصائص حياة المتصوف ومظاهرها ونتائجها على صاحبها وعلى الناس . ويبين لنا فى « الفلسفة الدائمة » وفى « أبواب الحس الإدراكى » وفى « الجنة والجحيم » ان الوصول الى الحقائق الصوفية العميقة لا يأتى عن طريق البرهان العقلى ولكن عن طريق الفهم الذى يدفعنا دائما إلى السعى الدائب للوصول اليها .

والطريق إلى الواحد أو النيرفانا عند هكسلى يبدأ من السامسارا أو المتعدد أو هذا العالم الجميل الذى نجده ممثلا فى كتبه فى الفترة الأخيرة فى

شكل فقرات يصف فيها مواطن الجمال فيه بعين لا تغيب عنها الدهشة . ويسأل أنتونى فى « ضرير فى غزة » أمن الضرورى أن يصل الإنسان إلى النيرفانا عن طريق السامسارا ؟ .

« ولماذا اذن هذا التعدد ؟ ... لماذا يستمر شر هذا الانفصال ؟ انفصال القديس عن القديس ، وانفصال الأشكال الطبيعية بعضها عن بعض ؟ » ويجيب .

« لا يستطيع إنسان أن يأكل من أجل انسان آخر ، ولا بد لاتقاهم من أن يفكر ويتمتع ويقاسى ويلمس ويشم ويسمع ويذوق فى عزلة عن الآخرين . والرجل الطيب يعيش فى عالم أقل انعزالا عن عالم الرجل الشرير ، ولكنه عالم مقفل ، تماما كالذرة المقفلة . وبالطبع إذا كان لا بد من أن يكون هناك وجود — وجود كما نعرفه — فلا بد للكائنات من أن تنتظم فى عوالم مغلقة ، وعقول كعقولنا « لابد لها أن تدرك الوحدة دون فوارق وكأنها لا شىء . تناقض لا مفر منه لأننا نريد أن تكون س = ١ ولكننا نجد ، فى الحقيقة ، أن ١ = صفر » .

والوصول إلى الحقائق الصوفية العميقة لا يأتى عن طريق البرهان لأنها حالات سريعة الزوال يشعر المتصوف عندما يعانيها كما لو كانت إرادته الشخصية معطلة . وقد وصل هكسلى من خلال دراساته فى علم النفس وأدب المتصوفين إلى حقيقة هامة وهى أن شعورنا اليقظ الراهن ليس إلا نمطاً واحداً من أنماط الشعور الإنسانى . فلكل شخص ، كما يقول لنا فى مقاله « تعليم الإنسان البرمائى » (أدونيس والأبجدية) نفس واعية تحتها خمس أو ست نفوس أخرى مميزة . فهناك أولا النفس « المحلية » التى كونتها العادات والأفعال المكيفة ، تلك النفس التى تحتفظ بذكريات الماضى وتعذبها العواطف المكبوتة ويهتم علماء النفس بهذه المنطقة ، وبعدها تأتى النفس

النمائية أو الإنتيليخى وهى التى تعتنى بالجسد والتى تقوم فعلا بالمشى عندما نريد أن نمشى والتى تتحكم فى ضربات القلب وإفرازات غددنا وتسير عملية الهضم وتساعد على التئام الجروح وتعيد إلينا الصحة بعد المرض . ثم تأتى النفس التى تسكن ذلك العالم الغريب الذى نستمد منه إلهامنا وهى النفس التى ناجاها سقراط والتى حلمت بنص « قوبلاى خان » للشاعر كولبردج والتى أملت « الملك لير » و « كتاب الأموات » وهى المسئولة عن كل نكتسبه من حكمة وما نحصل عليه من إستزادة فى القوة الحيوية أو الذهنية. وبعد هذا العالم يوجد العالم الذى يطلق عليه يونج « عالم النماذج الأولية » برموزه المتعددة التى نشارك فيها جميعاً . ثم بعد ذلك يأتى عالم الرؤى ، حيث تعيش اللا — أنا ، ذلك العالم الذى يزخر بالحقائق التى لا تمت لعالم الإنسان المرئى بصلة ولا بعالم الرموز أو النماذج الأولية وهو العالم الذى استمد منه اللاهوتيون أفكارهم عن الجنة والجحيم . وأخيراً يأتى العالم الذى تسكنه الروح القدس أو الضوء الساطع أو الآخرية .

ولا يمكن للانسان من أن يرتقى إلى هذا المستوى ويتمتع بالرؤية الحقة دون الغوص فى الواقع المحسوس ، فالمولد الثانى أو البعث أو الحركة الصاعدة لا تبدأ فى العدم أو فى الفراغ أو فى النيرفانا .

بل يرتكز على الأرض التى نعيش عليها وهى نقطة الانطلاق إلى الواحد المطلق . والانطلاق أو الصعود عند هكسلى هو عودة إلى الأصل وكما يقول ت . س . اليوت (من ترجمة للدكتور مهدى علام) .

باب خفى غير منسى لنـــا منه ولجنا نحن بيداء الظنون
فإذا الذى كنا نظن مفازة لم تمشى فيها أرجل للعالمين
هي نقطة البدء التي منها ابتدأنا السير يوم خروجنا مستكشفين

ألدوس هكسلى : المراجع

ALDOUS HUXLEY

1—Atkine, J. ; Aldous Huxley, London, John Calder, 1957.

2—Henderson A. J. : Aldous Huxley, London, 1935.

3—Gerard, A. : A la rencontre de Aldous Huxley, Paris, 1947.

4—Savage, D. S. : Mysticism & Aldous Huxley, New York The Alicat Bookshop Press, 1947.

5—Van, G. : St. Thomas and Mr. Huxley : On Being Human, London 1933.

Selected Periodicals :—

Freeman, J. : Aldous Huxley, The London Mercury, Sept. V, 1927, pp. 391—399.

MacCarthy, D. : Notes on Aldous Huxley, Life and Letters, Sept. V, 1930, pp. 198—209.

Kooistra, J. : Aldous Huxley, English Studies, Oct. XIII, 1931, pp. 161—175.

Bethell, P. : The Philosophy in the Poetry of Aldous Huxley, Poetry Review, Sept. XXIV, 1933, pp. 359—368.

Alexander, H. : Lawrence and Huxley, Queen's Quarterly, Spring, 1935, pp. 96—108.

Kirkwood, M. M. : The Thought of Aldous Huxley, University of Toronto Quarterly, Jan. VI, 1937, pp. 189—194.

Bedoyere M. de la : Huxly's Challenge, Dublin Review, Jan. CCII, 1938, pp. 13—26.

Roberts, J. H. : Huxley and Lawrence, The Virginia Quarterly Review, Autumn XIII, 1937, pp. 546—557.

Rolo, C. J. : The Atlantic, August, 1947 pp. 109—115.

Sutherland, A. : Aldous Huxley's Mind at Large, The Twentieth. Century, May CLV, 1954.

Meyerhoff, H. : In the Mind's Antipodes, The New Republic, May 14, 1956.

Barrett, M. : Aldous Huxley, Merchant of Mescalin, The Reporter, March 2, 1954.

Surgue, T. : Enlightenment on Our Unenlightenment, Saturday Review, June 24 1950.